
للكتابة
حكايات
صاحب الصُندوق
محمد عبد المحسن
كيان
ساحر الكتب

إهداء

إلى ذلك الصوت الذي يُلازمني في أحلامي منذُ طفولتي ويحُثّني على النَّهل من آبار المعرفة والنبش تحت أحجار الماضي، ها أنا قد عملتُ بنصائحك وبدأتُ في مُشاركة بعض ما لديّ.

تمهيد

يعود تاريخنا ككائناتٍ مُفكّرة عاقلة إلى قُرب الثلاثمائة ألف سنة، وفقًا لآراء الباحثين وعُلماء الأجناس بعد اكتشاف بقايا بشرية قُرب جبل (إيغود) في المغرب سنة 2017، ومن بين هذه المئات من السنين بدأنا نحن في تدوين أحداثنا ومعارفنا ربما قُرب الألف الخامسة قبل الميلاد فقط، وما وصل إلينا من هذه التسجيلات لا يكادُ يكفي لتكوين فكرةٍ دقيقة عن جميع ما مرّ به جنسُنا من أحداثٍ وتغيرات وخبرات، ضاع أغلبها مع ما ضاع ونُسي بعضها الآخر مع مرور الوقت وتم تبديل البعض الأخير بما يتلاءم مع رغبة مَن قام بتسجيل الحدث، فالتاريخ يكتُبه المُنتصر كما هو مُتعارَف عليه ...

وحديثنا بين دفتَي هذا الكتاب لن يشمل المجهول بطبيعةِ الحال فهو للأسف ... مجهول، بل سيشمل الأحداث المُسجّلة في التاريخ ... نعم، والمُوثّقة بالمصادر بالفعل، سواء كانت مصادر عديدة أم محدودة، ولكن ما يجمع بينهم أنَّ جميعها أحداث غير مفهومة لنا، ألغاز تُركت بدون حلول، ليس عن عمدٍ، بل لأننا فشلنا في حلِّها، أحداث من غرابتها قد تشكُّ في أصليَّتِها من البداية، سواءً كانت جرائم غامضة، أو حوادث اختفاء أكثر غموضًا، أو أسرارًا لا تزال أسرارًا برغم مرور عشرات إن لم يكُن مئات السنين على معرفتنا بها ...

وأضمن لك أن بعضَها سيُنسيك أن تلتقط أنفاسك ...

وقد اخترتُ أن أسردها لك بطريقةٍ أدبية أشبه بالحكايات على

لسان راويهم، بعيدًا عن روتينية المقالات وطابعها التقليدي الجامد على غرار مقال رقم 1 كذا ومقال رقم 2 كذا، بل سآخُذك في كل رحلةٍ وأُشركك تفاصيلها بنفسك لتعيش أجواءها وتشهد أحداثها وكأنّك عشتَها من قبلُ في نسيجٍ مُتكامل من أول الكتاب لآخِره في شكلٍ مُختلف، بل وتعمّدت ألّا أضع فهرسًا لهذه الرحلات الغامضة سواءً في بداية الكتاب أو نهايته كي تكون كل رحلة مُفاجأة لك، وكل صفحة قادمة هي لغزٌ غامض في حدِّ ذاته، فتمخر عُباب التاريخ بدون أي توقُّعات مُسبقة وتركت لك الورقة خالية تملؤها بنفسك إذا ما أردتَ ...

وقد تعمّدت أن أحشو تقريبًا كل حكايةٍ بما استطعتُ من المعلومات التاريخية أو العلمية بطريقةٍ سلسلةٍ وبسيطة كي يكون الكتاب وجبةً دسمةً ومُفيدة كما هي مُسلّية كما أتمنَّى دون أن أُسهب في السرد منعًا للملل أو تحويل المُحتوى لكتابٍ مدرسي، فعسى أن أكون قد وُفِّقتُ ...

والآن كفانا ثرثرةً وضع الكتاب جانبًا، قُم وأَعِدّ كوبًا من النسكافيه اللذيذ قبل أن تبدأ، وعند انتهائك من القراءة تذكّر أن ما ستكون قد عرفته خلال هذه الصفحات لا يعرفه الكثير من الناس ...

ولكنّك وقتَها لن تكون منهم ...

مُقدمة لا بُد منها

تسلَّل ضوء الصباح عبر خَصاص الشُّرفة على استحياء ليكسر ظُلمة الغرفة الهادئة، فتململ (يوسف) في فراشه وهو يتمطّى في كسلٍ قبل أن يفتح عينَيه ببطءٍ مُتحسّسًا الفراش الخالي بجانبه، كان لا يزال دافئًا، فأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يستجمع قواه وينهض مُستندًا على يُسراه وهو يُنادي على زوجته (إيمان) بصوتٍ خامل، ليأتيه صوتُها مكتومًا من المطبخ ...

هزَّ رأسه بعد أن فشل في فَهم كلماتها، فقام مُترنحًا وهو يتّجه إليها بعينَين نصف مُغلقتَين، حيثُ كانت مُنهمكة في إعداد الإفطار، فسألها بصوتٍ ناعس عن سبب استيقاظها في هذا الوقت المُبكر، فالتفتت إليه بنظرة مُتهكِّمة وهي تضع يدها في جانبها وقد رنّت نبرة السُّخرية في صوتها:

– طبعًا، وأنّى لك أن تعرف أنّ هذا هو ميعادي المُعتاد وأنت تصحو كل يومٍ قُرب الظهيرة يا أُستاذ (يوسف) ...

– شعر بقليلٍ من الحرَج، فتنحنح مُتعمّدًا تغيير الموضوع وهو يسألها:

– إحم، ماذا أعددتِ لنا ...؟

– بل قُل لي أولًا، لِمَ كل هذا النشاط ...؟ لستُ مُعتادة مِنك على هذا ...

– امممم، بالي مشغول بصفقة اليوم، حتّى أنّني استيقظتُ قبل

ميعاد المُنبه، أتمنَّى أن تنتهي على خير ...

قالها وهو يلوك قطعةً من كيك البرتقال كان قد التقطَها من طبقٍ موضوع على طاولة المطبخ فسبقته يدُها تلطم يدَه في رفقٍ قبل أن يسحب الثانية وهي تُعاتبه:

– انتظر حتّى أنتهي، وأي صفقة ...؟ (أكتوبر)؟

– أاي، حسنًا ... نعم، (أكتوبر)، انتهَينا من تجديده وسيأتي مُشترٍ ليراه اليوم ...

كانت هذه هي الوظيفة التي اختارها (يوسف) لنفسه بعد أن ترك الهندسة، تدوير العقارات، فيشتري المنازل الصغيرة، الفيلات المهجورة وأحيانًا الشُّقق ويعمل على تجديدها وإنعاشها من حالاتها القديمة بفريقٍ مُتكاملٍ يعمل تحت يدِه يشمل فنِّيي كهرباء، وسباكة ونجارة وطابورًا كاملًا من جميع المجالات، أهمهم صديقه (سامي) الذي يتولَّى مهمة الإشراف على فريق العمل، بالإضافة إلى البحث عن (أهداف) تستحق المجهود والمال اللازمَين لتحويل العقار المُتهالك إلى عروسٍ يُدِرُّ من الرِّبح ما يُغطِّي تكاليف التجديد ويزيد ...

كان الموضوع على باله منذ سنوات، ولكنَّها ظلّت مُجّرد فكرة حتّى اقتنع أنَّ الهندسة لا تؤتي أُكلها فأخذ القرار وبجميع مُدَّخراته اشترى أول شقّةٍ على الطوب الأحمر، وعمل على تجهيزها من الصفر، واستعان بخبراته العملية مع شهورٍ من مُشاهدة قناة HGTV التي كانت منبعًا للأفكار الخصبة الرائعة بعرضها لمُحتوًى مُشابه، ومرة تلوَ

الأخرى كوّن فريقه الحالي، ومع الوقت أصبح الأمر أسهل، حتّى صار خبيرًا لا يُشَقُّ له غُبار ومن الزيارة الأولى للعقار يستطيع أن يُقرر ما إذا كان الأمر يستحق العناء أم لا، وترك مجال الهندسة نهائيًّا، ولم يندم لحظة.

قاطع أفكاره رنين المُنبه على هاتفه في غُرفة النوم، فهُرع إليها مُسرعًا والتقطه في نفس اللحظة التي كان (سامي) يتّصل به:

– آلو، صباح النور يا (سامي) ... نعم استيقظت ... اترُكه مع (أبو كريم) سأمُرُّ عليه الآن ... ولا تنسَ المشوار إيّاه ... سأنتظِر مُكالمتك ... حسنًا ... سلام مؤقَّت ...

أنهى مُكالمته وارتدى ملابسه على عجلٍ وتناول إفطارًا سريعًا مع زوجته قبل أن يُقبّلها على جبهتها ويمضي في طريقه.

***

لم تمضِ نصف ساعة حتّى كان يقف بسيارته أمام المنزل، ويترجّل منها بابتسامة مُرحبّة ليُصافح الرجل الوقور الذي وقف ينتظره مع سيدةٍ أنيقة مُنبهرَين بالشكل الخارجي للمنزل بعد أن أجرى عليه فريق (يوسف) العديد من التعديلات من إزالة طبقةِ الطلاء الخارجية، واختيار لونٍ آخر مُناسب لطراز المبنى، وإضافة عدة زخارف أنيقة حملت الطابع الأوروبي، وزراعة المنطقة المُحيطة بأشجارٍ مازالت صغيرةً يُحيطها سور من الأسلاك الأنيقة السوداء، وأعلى المنزل ميازيب للتخلُّص من مياه الأمطار على هيئة تماثيل لحيوانات تقبع في عَظَمةٍ تواجِه الزائرين.

الخُلاصة أن التجديد كان يحبس الأنفاس.

واصطحبهما (يوسف) في جولةٍ داخلية ليُريهما المزيد من الإبهار من الديكورات رفيعة المستوى وتوزيع الإضاءة والألوان والأثاث الراقي الذي ينمّ عن ذوقٍ خلَب لُبّ الزوجَين وأدرك (يوسف) من الدقيقة الأولى أن المنزل لهما بدون أي محاولات إقناع من طرفه.

تعمَّد ألّا يتحدَّث كثيرًا وتركَهما يلتهِمان كلَّ ما حولَهما بعينَيهما كي يضمن أنَّهما تشرَّبا المنزل تمامًا بتفاصيله حتّى لا يُتعِباه عند الحديث عن الثمن، واكتفى بابتسامةٍ هادئة، فخور بمجهود فريقه، ارتسمت أغلب الوقت على شفتَيه بينما تجوَّل الزوجان معًا في أنحاء المكان وهما يتحدَّثان بصوتٍ خافت إلّا عندما كان لدى أحدهما استفسارٌ يُوجّهه إلى (يوسف) الذي كان يُجيبه في حماسة وبأسلوب البائع اللَّبق الذي أحكم الشِّباك حول محفظة الرجل أكثر وأكثر ...

رنّ هاتفه في نفس اللحظة وظهر على شاشته اسم (سامي) فاستأذن منهما بلُطفٍ وأجاب في سُرعة:

– (سامي)، ماذا هناك ...؟

– هل اتصل بك أحد يُدعى (بدر) ...؟

– لا ...؟ مَن هذا ...؟

– سمسار عقارات، أحدهم وصَّلَني به منذ قليل، لدَيه فيلّا للبيع في الزمالك فأعطيتُه رقمك وأخبرني أنّه سيـ ... اهتزّ الهاتف في يد (يوسف) مُعلنًا دخول مُكالمةٍ أُخرى من رقمٍ غير مُسجَّل، خمَّن أنّه

السمسار، فأخبر (سامي) ثم أجاب:

– - ألو ...؟ ... نعم أنا ... نعم، أخبرَني الأستاذ (سامي) بالفعل... حسنًا، سأُنهي ما بيدي وأمُرُّ عليك ... حسنًا ... على نفس الرقم نعم ... حسنًا ... إلى اللقاء ...

أنهى المُكالمة وعاد إلى الزوجَين السعيدَين اللذَين لم يترددّا لحظةً في قبول السعر المعروض لتنتهي صفقة اليوم بنجاح.

***

كان السمسار قد أرسل موقع الڤيلّا إلى (يوسف) والتي كانت في شارع (...) في الزمالك، منطقة هادئة وراقية كأغلب مناطق ذلك الحي ...

توّقف (يوسف) بسيارته على ناصية الشارع وآثر أن يترجّل المسافة المُتبقِّية ليدرُس المنطقة جيدًا بعينٍ مُتفحصٍّة، فالعقار قيمتُه ليست فقط في البناء بل في المكان الذي يضمُّه أيضًا، وكان هذا المكان بالتحديد هادئًا لطيفًا والشارع نفسه لا يضُم الكثير من المباني، فقط بضع ڤيلّات مُتناثِرة على يمين ويسار الشارع الذي كان على مسافة رُبع ساعة من شارع 26 يوليو الحيوي.

وكان أول ما لاحظه عند وصوله للڤيلّا هو الحالة المُزرية التي كانت عليها ...

حالة تشي بإهمالٍ استمر سنينَ طويلة، ظهرت علاماته في حوائط امتلأت ببُقَع من جرّاء الرطوبة التي نخرت فيها، وحديقة كانت غنّاءَ

يومًا ما، ماتت الآن أغلب نباتاتُها وأصفرَّ ما تبقّى من أوراقها، مُحاطة بسور من الطوب المُتداعي المثقوب في بعض أنحائه، بل إن بعض النوافذ في الدور الثاني والأخير كانت بدون زجاج أو بقايا مُهشَّمة منه، بالإضافة لهيكل سيارةٍ مُغطاة تقبع في الجراج الداخلي نصف المفتوح وقد أكل الصدأ الأجزاء الواضحة منها ...

ألقى (يوسف) بنظرِه حوله ليتوقَّف على رجلٍ قصير القامة، يرتدي ملابسَ غير مُتناسِقة يترجَّل من سيارةٍ بسيطة مركونة على بُعد أمتارٍ من سور الڤيلَّا مُتَّجِهًا إليه في لهفةٍ مادًّا يدَه إليه في ترحابٍ مُبالَغٍ فيه:

- أستاذ (يوسف) أليس كذلك ...؟ أنا (بدر) السمسار، تحدَّثنا على الهاتف، سمعتُ عنك وعن شركتك الكثير ...

- أهلًا أستاذ (بدر)، لم تُخبرني أن حالة الڤيلَّا بهذا السوء ...

ظهر الارتباك واضحًا في صوت (بدر) وهو يُجيب:

- أها، لا لا تقلق، لا لا تقلق، حالتها بالداخل أفضل ممَّا تبدو بالخارج، تفضَّل ...

وسبقَه في سُرعةٍ وهو يفتح البوابة الحديدية المُتهالكة بمفتاحٍ أخرَجه من جيبه وهو يُفسح الطريق لـ (يوسف) ليتقدَّمه وهو يُدير عينَيه في المكان في خيبة أملٍ واضحة لاحظها (بدر) فأخذ يُعدِّد محاسن المكان في حماسٍ مُفتعَل مُستميت، حتَّى دخلا عبر البوابة الرئيسية للڤيلا التي كانت يومًا ما مصنوعةً من خشبٍ فاخر، الآن اختفت معالمه تحت الأتربة والأوساخ، أفضت إلى صالة واسعة

امتلأت بقِطَع أثاث مُغطاة بأقمشةٍ بالية مُصفرَّة.

أسرع (بدر) إلى مُفتاح النور ليضغط عليه فيغمُر الضوء المكان وتبدو ملامحه أوضح.

كانت حالة الڤيلا من الداخل – بالفعل – أفضل منها بالخارج، ربَّما لأن الطابق السُّفلي كان مُحكم الإغلاق عن الطابق العلوي الذي تكسَّرت أغلب نوافذه عكس المُعتاد، وعندما ترجم (يوسف) أفكاره إلى سؤالٍ مسموع، أجابه (بدر) في سُرعة:

– الأطفال الشياطين، كانوا يستخدمون الطيور التي تقف على حواف النوافذ أهدافًا لبنادق الصيد الخاصة بهم، كان الأمر أكثر تحديًا في الطابق العلوي عنه في السُّفلي لبُعد المسافة ووجود السور الذي كان يصُدُّ الرؤية عن نوافذ الطابق الأرضي.

– كم مساحة العقار كاملةً يا أستاذ (بدر)؟

– حسنًا، المساحة الكلية 1250 مترًا مُربّعًا بينما مساحة المباني حوالي 550 مترًا مُربعًا، غير شاملة للحديقة، كما رأيت على طابقَين، 6 غُرف نوم بالطابق العلوي فبالتالي مساحة كل غُرفة واسعة، و7 حمَّامات، حمّام للضيوف بالطابق الأسفل والباقي بالأعلى مع حمَّام مُخصَّص لغُرفة النوم الرئيسية و...

– وكم المطلوب؟

– إحم، نظرًا لحالة المكان وعُمر المبنى نفسه، إمممم، مطلوب 45 مليونًا، فقط.

لم يُعلِّق (يوسف) وتابع تجوُّله وهو يفتح أبواب الغُرَف المُغلقة تباعًا ليُلقي نظرةً على ما بداخلها ويُقيِّم مُحتوياتها، فمِن المُتعارف عليه أنَّ سعر الشراء يشمل الأثاث والمُحتويات في بعض الحالات، وفي حالة هذه الڤيلّا بالتحديد - لو وقع اختيارُه عليها - فسيعمل على أن يشمل السعر جميع ما فيها من مُقتنَيات، عسى أن يجد من ضمنها ما يعوِّض الحالة المُزرية للمكان.

تابع تفقُّده للمكان، حتّى استوقفَتْه غُرفة المكتب التي امتلأت بأرفُفٍ من الكُتب الضخمة التي وصلت حدَّ السقف، دلف إليها وهو يمُر بأصابعه على كُعوب الكُتب وهو يُتمتِم بعناوينها بصوتٍ خافت قبل أن يستدير مُلتفتًا نحو المكتب العتيق الذي توسَّط أحد الحوائط وأخذ يعبث بالأوراق المُتناثرة على سطحه قبل أن تستوقِفه ورقة مُصفرَّة مفرودة في برواز قديم صار زجاجُه أكثر قتامةً ممَّا كان عليه، رفعَه (يوسف) ونفخ فيه بقوَّة ليُزيح التراب من عليه ليجد أنه رسمٌ تخطيطي هندسي للڤيلّا، وبحُكم خبرته السابقة كان الأمر مُثيرًا أن يجِد شيئًا مثل هذا هُنا، لم يعُد الجميع يهتمُّ بالاحتفاظ بنُسخةٍ من مُخططات مبانيهم، فما بيدِه الآن هو قطعةٌ من الزمن الجميل، فمسح على الزجاج بأناملِه لتبدو التفاصيلُ أوضح قبل أن يُضيء أباجورة المكتب ويُلقي نظرةً أكثر عُمقًا.

اقترب منه (بدر) في فضولٍ وهو ينظر بدوره إلى الرسم الذي لم يفقَهْ منه شيئًا وإن أدرك أنّه مُهمٌّ طالما جذب انتباه (الباشمهندس) وداعبته فكرةُ استغلال هذه النُّقطة ربَّما تزيده (قرشين) على عرقِه، فسأله وهو ينقل نظرَه بين الورقة وبين وجه (يوسف) الذي غرق في

تركيزه:

– هذا رسم للڤيلّا أليس كذلك؟ ما أعرفه أنَّها بُنيت في ثلاثينيَّات القرن الماضي على يد مُهندسٍ إيطالي يُدعى (زوبمرتا ... شيئًا ما) لا أتذكَّر.

– صحَّح له (يوسف) الاسم بصوتٍ شارد:

– (ألبرتو) ... (ألبرتو ماتيا).

– نعم، نعم، هو، ولكن ... كيف عرفت؟

أشار (يوسف) إلى إمضاء بخطٍّ دقيق أسفل الرسمة دون أن يُجيب، بل استمرَّ في شروده وهو يُداعب ذقنه بأطراف أصابعه وينقل بصرَه بين الرسمة وأنحاء الغُرفة، وكأنّه يدرسُ شيئًا ما، مما جعل (بدر) يتوتَّر ويلتفِت حوله هو الآخَر قبل أن يسأله:

– ماذا هناك؟

– هُناك شيءٌ ما غير مفهوم هنا، هذه الأبعاد، المفروض أنَّ ...

ثم بتَرَ عبارته وهو يتحرّك من مكانه صوبَ المكتبة الضخمة ليتفحَّصها في اهتمامٍ لدقيقتَين كاملتَين وهو يرفع الرسم أمام عينَيه وكأنه يُقارن بين موضِعه في الغُرفة وموقعه من الرسمة، ثم حاول أن يُحرِّك الكُتب من أماكنها لينظُر خلفَها بحثًا عن شيءٍ ما، حتّى فشل في تحريك أحد المراجع الضخمة من مكانه كما لو أنّه كان مُثبّتًا بمسامير في الرف، فحاول بعزمٍ أكثر حتى نفرت عروقه من وجهه، وبدأ الكتاب في الاستسلام، وكل هذا و(بدر) يُراقب ما

يقوم به (يوسف) بدون فهم، حتَّى بدأ الكتاب في الحركة ...

جاءت حركتُه بشكلٍ أُفقي على الرفِّ وكأنه مزلاج، على إثره ارتفع صوتٌ ميكانيكي خافت في أنحاء الغُرفة وكأنه صرير بوابة معدنية، فترك (يوسف) الكتاب ليتفاجأ به يعود إلى مكانه في بُطءٍ ليستقر مرَّة أُخرى وسط أقرانه ويسود الصمت ثوانيَ قبل أن يبدأ المكتب في الاهتزاز ببُطءٍ والتراب يتساقط من عليه وهو يدور حول محوره في هدوءٍ كاشفًا عن فراغٍ أسود تحته.

كليشيه ...

فتح (بدر) عينَيه على اتساعِهما في مزيجٍ من الرهبة والمُفاجأة وهو يتبادل النظرات مع (يوسف) الذي أخذ نَفَسًا عميقًا ثم تحرّك ببطءٍ نحو الفتحة التي صارت مُكتملةً وتُفضي إلى سُلمٍ أسطواني معدني يقود لمكانٍ ما تحت غرفة المكتب، أخرج هاتفه وأضاء كشَّافه وهو يُصوِّبه نحو الفراغ ليُبدّد القليل من الظلام الدامس وهو يخطو على الدرجة الأولى بطرف قدمِه ليختبر متانتها في الوقت الذي سأله فيه (بدر) في توتر:

– إلى أين أنتَ ذاهب يا سيد (يوسف)؟ نحن لا ندري ماذا بالأسفل وما إذا كان السُّلَّم سيتحمَّل وزنك بعد هذه السنين أم لا؟

– أستطيع أن أرى الأرض من هنا، ليست بعيدة، ربَّما ثلاثة أمتار فقط.

وقرَن قولَه بهبوطه خطوةً تلوَ الأُخرى بحذَرٍ في الوقت الذي وصل فيه (بدر) للفتحة وألقى ببصره للأسفل حيث (يوسف) الذي كان

قد وصل لبداية ممرٍّ أفقي رافعًا هاتفه فوق مستوى رأسه ليُضيء أكبر مساحةٍ مُمكنة ويُصبح الباب الخشبي في نهايتِه واضحًا بلافتةٍ معدنية أنيقة محفور عليها كلمتَين بحروفٍ مُتربة ...

- (الأرشيف 23) ...

أتاهُ صوت (بدر) من الأعلى مُحمَّلًا بمزيجٍ من التوتر والفضول:

- ماذا ترى يا سيد (يوسف)؟!

- هُناك غرفة هُنا، تبدو وكأنها غرفة خزين أو كرار.

- مُغلقة؟

كان (يوسف) قد وصل بالفعل إلى الباب، ومدَّ يدَه إلى المقبض ليجده غير مُغلقٍ بإحكام، فدفعه برفقٍ وكفُّه تتحسَّس الحائط من الداخل حتَّى وصل لمقبس النور، ففتحَه ليملأ المكان ضوء أصفر دافئ تبدو على أثره الغرفة الواسعة التي بدت بالفعل وكأنَّها غُرفة خزين امتلأت بالعديد من الصناديق الورقية المُتراصَّة بنظامٍ وعلى كلٍّ منهم ورقة ما، ربَّما تسرُد المحتويات، لا تبدو واضحة من حيث وقف (يوسف)، بالإضافة لعدة تُحَف وأنتيكات من لوحاتٍ بأُطُرٍ خشبية مُزخرفة، وتماثيل عتيقة تناثرت هنا وهناك و...

- يا سيد (يوسف) ...!

تذكّر (بدر) الذي احترق بفضوله وتوتُّره بالأعلى، فتعالى صوتُه مُجيبًا إيَّاه:

- نعم يا أستاذ (بدر)، الغُرفة مفتوحة وهي بالفعل غُرفة خزين، أنا

آتٍ...

وجال ببصره مرّةً أخيرة في أنحاء الغُرفة وهو يتراجع بظهره ليُغادر، قبل أن يتوقَّف على صندوقَين خشبِيَّين موضوعَيْن على طاولةٍ وحدهما، وجذب انتباهه أحدُهما وعليه مُلصق (سرِّي للغاية) مع رسمةٍ لكلبٍ يستمع إلى جهاز جرامافون، علامة مُميزة للشركة البريطانية الشهيرة (صوت سيده)، بينما بجانبه الرقم صفر بحجمٍ كبير، والصندوق الآخر أكبر قليلًا في الحجم مُلصَق عليه رسمة تُمثّل كومةً من المُستندات أو الوثائق، فعقَد (يوسف) حاجبَيه وقد أثار شكل الصندوقَين فضولَه، قبل أن يحسم أمره ويُطفئ النور مرّةً أُخرى ويُغلق الباب ويعود أدراجه وقد اتَّخذ قراره بالفعل.

***

لم تمضِ بضعة أيام إلّا وكان (يوسف) قد أنهى إجراءات التعاقُد ودفع جُزءًا من المبلغ بعد أن داعبتِ الغُرفة بمحتوياتها مُخيلته، بعض تلك الأنتيكات يُقدّر بثروةٍ فعلًا، وبالطبع لم يسمح لـ (بدر) بالنزول، لم يُرِد أن يسيل لُعابه لمرأى محتوياتها فيرفع السعر أكثرَ أو يقِف عائقًا في إتمام الصفقة.

ويتبقّى الصندوقان إيّاهما.

كانت الساعة قد قاربت على العاشرة صباحًا عندما وقف أمامهما بعد أن أزال غطاء الأول ليتطلّع إلى مجموعةِ الأسطوانات المُتراصَّة داخلَه، كانت كبيرة الحجم وثقيلة الوزن، من الواضح أنّها من الحجَر كعادة أسطوانات الجرامافون على عكس الأسطوانات الأُخرى

البلاستيكية التي تُميّز أجهزة الـ (بيك أب) الأُخرى، فأخرج منهم عدّة أسطوانات حملت كلٌّ واحدةٍ منها عنوانًا وتاريخًا ما ...

أغلبها عناوين تضمُّ أسماءً لم تمُر عليه من قبل ولم يدْرِ ما المقصود بها ... ربّما ما عدا الأخير الذي بدا مألوفًا نوعًا ما.

كان قد رتّب مُحتويات الغُرفة بعض الشيء، وأزال بعض الأتربة المُتراكمة على التُّحف واللوحات، ووجد كرسيًا وثيرًا ومُريحًا مدفونًا تحت كومةٍ من المجلّات والجرائد القديمة، أخرجه من مكانه وأزاح ما عليه قبل أن ينفض ما عليه من أتربة وسحبَه قُرب الطاولة بعد أن أخرج الأسطوانات ورصّها أمامه وقد غالَبه فضولُه ليعرف المُحتوى السري للغاية المُسجّل على هذه الأسطوانات.

كانت المُعضلة في كيفية تشغيلهم، ولكن بعد بحثٍ دقيق وجد ضالّته في جهاز جرامافون عتيق، مُخبّأ في صندوقٍ آخر في رُكن الغُرفة، فبالطبع طالما امتلك صاحب الڤيلّا أسطوانات جرامافون فمن الطبيعي أن يمتلك الجرامافون نفسه، وعليها لم تمضِ خمس دقائق إلّا وكان كلُّ شيءٍ جاهزًا.

سحب أول أسطوانة إلى اليمين حملت عنوان (البداية .. صفر).

كان جدُّه يمتلك جرامافونًا شبيهًا بهذا فكانت لديه خلفية بكيفية تشغيله، فأراد أولًا أن يطمئنَّ على مكوّناته، فرفع ذراع الجرامافون وتأكّد أن الإبرة سليمة، ثبّت الأسطوانة في مكانها بعد أن نفض التراب من عليه وأدار الذراع الميكانيكية بضع لفّات قبل أن يترُكها، ولفرحته بدأ المحور في الدوران وارتسمت ابتسامة ملهوفة على

ثغره إثر تصاعُد صوتٍ ستاتيكي قديم ومُحبَّب من البوق النُّحاسي
تبِعَه صوت رجلٍ عجوز يتحدَّث بصوتٍ عميقٍ وهادئ ويقول ...

البداية
صفر

نحن جنسٌ غريب.

ظهرنا على هذه الأرض مع آخر دقّات الساعة الثانية عشرة من تاريخها، وبالرغم من ذلك فتاريخنا نفسه مليء بالأحداث التي لم يصل إلينا منها سوى الفُتات، وحتّى تلك الفُتات ليست جميعها مفهومة أو معلومة الأركان.

ما بين يدَيك الآن هو أول تسجيلٍ في سلسلةٍ طويلة من التسجيلات أنوي أن أوثّق بها مُحاولاتي لسبْر أغوار هذا التاريخ المعلوم بأحداثه الغامضة، سأكون صادقًا أنّني لستُ مُتأكدًا من أنها ستصِل إلى أحدٍ من الأساس، ولكنّها الرغبة في جنسِنا البشري للحكاية، العادة المحفورة في حِمضنا النووي منذُ الأزل، من أول رسومات البشر البدائيِّين على جُدران الكهوف مُرورًا بالنقش على الأحجار والأواني، فالحكايات حول نيران التجمُّعات البشرية طلبًا للدِّفء والأُنس وحتى اختراع الكتابة والتدوين كما نعرفه بشكلِه الحالي، وما أنت بصدد سماعه على مدار عدّة تسجيلات ما هو إلّا سرد لأحداثٍ غامضة مَنسِيٌّ بعضُها والبعض الآخر تائِهٌ بين دفّات الكتب أو فقط مَحكي في حكايات الجدّات.

أوثِر أن أحتفظ باسمي لنفسي، على الأقل مؤقتًا، فيُمكن أن أكون لك (مُحمد المصري) أو (يوحنا الشامي) أو (مارتينوس اليوناني) أو حتّى (إدوارد البريطاني) ... يُمكنني أن أكون كل الأشخاص بجميع

الجنسيات، وهذا ليس ما يُهِم، المُهم هو ما لديَّ من أحداثٍ لأحكيها ... وجميع هذه الأحداث رأيثُها بنفسي رأيَ العين، وحضرتُها بنفسي، بشحمي ولحمي، وعلى مرِّ العصور كُنت شاهدًا على كل لحظةٍ فيها، ضمانًا لمصداقية ما ستسمَعُه. أمَّا عن الكيفية، فهذا ما لا أضمن لك معرفته، رُبَّما في نهاية حكاياتي أُقرّر أن أُحيطك علمًا بالوسيلة التي اتبعتُها، وربّما لا ..

سأدع ذلك لوقته ...

وبغضِّ النظر عن التفاصيل المُعقدة، ما يُمكنك أن تعرفه أن طريقتي قديمة ومنسيَّة، وأحيانًا مؤلِمة، عند تجسُّدي في الحدَث المعني أتجسَّد كأني وُلدتُ لتوِّي، لا أتذكّرُ شيئًا إلا اللَّمَم، ولكن سُرعان ما تأتي الذكريات تباعًا حتّى أعرف ما أنا بصدده، أمّا اختياري للأحداث فنابِعٌ من قراءاتي الغزيرة؛ اكتفيتُ من المعرفة المكتوبة، وحان وقت رؤيتها حيَّةً ...

فافتح مَداركك، ولا تكبح جماح خيالك، فما أنت بصدد سماعِه لا يحتمِله سوى العقل المُتفتِّح.

***

وهنا انتهى التسجيل القصير الغريب وظلَّت الأسطوانة تدور لثوانٍ قبل أن تتوقف أمام عيني (يوسف) الذي كان يستمعُ بتركيزٍ واهتمام بالِغين وقد جذب كلامُ الرجل اهتمامه إلى أقصى حد.

كان هذا عكس ما توقَّعه تمامًا ...

في البداية أعتقد أنّه سيجد بعضَ الأسرار العائلية أو شيئًا ما يخُصّ هذه الڤيلا بالتحديد، بل وذهب به خياله لاحتمالية كونها أسرارًا سياسية أو فضائح شخصيات دبلوماسية، ولم يخطُر على بالِه ما سمِعه على الإطلاق.

وإن كان ما سمِعه أكثر إثارةً ممّا تخيَّل.

مُحادثة من طرفٍ واحد في بضع ثواني كانت أكثر مِن كافيةٍ ليقوم من مكانه ويسحب الأسطوانة من مكانها أسفل ذراع الجرامافون، ويلتقِط أُخرى كُتِب عليها (لقاء مع صاحب القرون)، لم يدر مَن يكون ولكنّه خمّن – من الاسم – أنّه ربما رجُلٌ ما نبتَت لدَيه قرون في رأسِه، تأكَّد من وضع الأسطوانة بطريقةٍ سليمة والإبرة عند طرفها وأدار الذراع لثوانٍ، قبل أن يُطلق سراحه ...

ويرتفع صوت الرجل مصحوبًا بصوتِ الهدير المُحبَّب ...

لقاء مع صاحب (القرون)

1554م

لا يزالُ التجسُّد مؤلِمًا ...

كل عضلةٍ في جسدي تئنُّ في ألَم، لا بُد وأن أجد طريقةً تُخفِّف هذا العناء ...

أشمُّ رائحة عطَنٍ كريهة الآن جعلت أنفي يتقلَّص في عُنف، فانتفضتُ في مكاني فاتحًا عينيّ من الصدمة، لأواجِه ظلامًا دامسًا يُحيط بي من جميع الجهات ...

أشعُر برأسي ثقيلًا من جراء الانتقال، غُلاف ضبابي يكتنِف عقلي فلا أُريد أن أقوم بأي حركةٍ مُفاجئة كي لا أزيدَ الأمرَ سوءًا، أُحرّك كفّي أمامي مدَّ ذراعي في محاولةٍ لاستكشاف المُحيطات من حولي، تُلامِسُ أناملي مُجسّمًا خشبيًا خشنَ الملمس، من حركة يدي عليه أُدركُ أنَّه برميل خشبي أتتبَّعه بأصابعي لأصِل إلى أعلاه.

استندتُ عليه حتَّى وقفتُ على قدمَيّ.

لا زلتُ لا أتذكّر تفاصيل ما سيحدُث، فقط هاتفٌ ما في عقلي الباطن يُخبِرني أنِّي في (فرنسا). أين بالضبط في (فرنسا)؟ فذلك، مازلتُ جاهلًا به ...

أتحرَّك في مكاني ببطءٍ الآن، مُتحسِّسًا ما حولي ...

أبحثُ عن أي مصدرٍ للضوء، فلا أجدُ شيئًا بعدُ ...

مع مرور الثواني يرتفع الطنين في أُذني وتتدفَّق الذكريات رويدًا رويدًا إلى عقلي ...

(صالون دي بروفنس) في العام 1554 ...

نعم، أنا هُنا لمُراقبة رجلٍ ما، ولكن مَن هو؟

(ميشيل) ... (ميشيل) شيءٌ ما ...

مهلًا، أسمعُ صوتَ خُطواتٍ بالأسفل، إذًا فأنا في دورٍ علويٍّ من مَبنًى ما.

أتراجَعُ بحذَرٍ في نفس طريقي في حين يتعالى صوت الخطوات أكثر وهي تعتلي سُلَّمًا يئنُّ هو الآخر من ثقل مُعتلِيه، ولحُسن حظِّي أنّي في نفس اللحظة التي وصلتُ فيها إلى البرميل الخشبي واختبأتُ خلفه بسرعةٍ غمر ضوءٌ أصفر باهت المكان، أغشى عينيَّ، سأكتمُ نَفَسي لثوانٍ كي لا ينكشِف مكاني وحتَّى تعتاد عيناي على الضوء ...

وأسترقُ النظر عبر فتحةٍ في البرميل إلى المكان ...

أراهُ عبارةً عن مساحةٍ مُتوسِّطة بسقفٍ مُنحدِر، أشبَه بعليّةٍ ما، يتوسَّطها طاولة مُستطيلة يقبع في مُنتصفها حاملٌ ثُلاثيٌّ أشبَه بحامل الكاميرا في عصري، وعليه طبَق به سائلٌ ما، لا أدري كُنهه من على بُعدٍ وإن كان أشبَهَ بالماء، وبجانب الحامل مفتوح كتابٌ ضخم، ورقه أصفر وجلدُه ثخين، وأمام الطاولة يقِف، في هيبةٍ ووقارٍ، الشيخ الذي دلَف إلى المكان، و...

يا إلهي، نعم ...

ما إن وقعت عيناي عليه بوجهه المُستطيل ولحيتِه البيضاء الطويلة والقُبعة السوداء على رأسه، حتّى اندفعَتِ الذكريات إلى عقلي كالنهر الجاري ...



أنا في حضرة (ميشيل دي نوتردام) ...

أو كما يعرفه العامّة بالاسم الأشهر ...

(نوستراداموس) ...

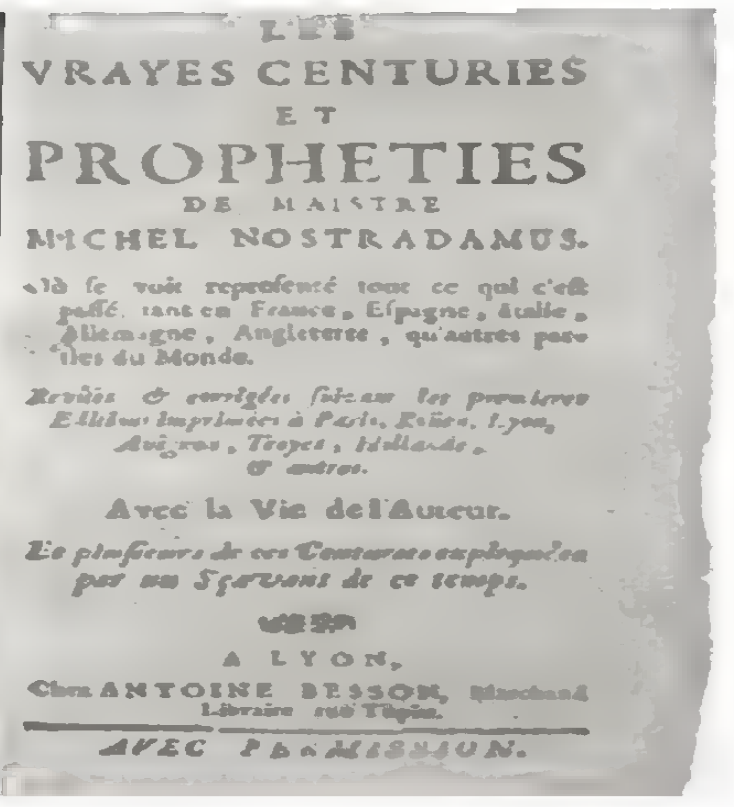
وسأُرفق صورةً له مع التسجيل الحالي في صندوق المُستندات لغَرَض التوثيق ...

***

وهُنا رفع (يوسف) ذراع الجرامافون ليوقِف الأسطوانة واتَّجه نحو الصندوق الآخر وأخذ يعبث في مُحتوياته حتَّى وجد مظروفًا مُغلقًا مكتوبًا عليه (لقاء مع صاحب القرون) ففضَّه في سُرعةٍ لتسقط منه صورة مرسومة بالأبيض والأسود لرجلٍ وقور مُلتحٍ يُمسك كتابًا في يُسراه وتبدو ملامح التركيز على وجهه العجوز ...

وضعها وسحب صورةً أُخرى مصوَّرة لصفحةٍ من كتابٍ ما قديم أصفرَّت أوراقه ومكتوب بالفرنسية، لم يفهم منها (يوسف) شيئًا سوى كلمة (تنبؤات) لكونها تُشبه نظيرتها في الإنجليزية، ألقى عليها (يوسف) نظرةً طويلة مُدققًا في ملامح الرجل وفي محتويات الطاولة أمامَه التي تُشبِه ما يصفه الرجل في التسجيل، وما إن انتهى حتَّى أعادها للصندوق وأعاد تشغيل الأسطوانة ...





LES
VRAYES CENTURIES
ET
PROPHETIES
DE MAISTRE
MICHEL NOSTRADAMUS.

Où se void représenté tout ce qui s'est passé, tant en France, Espagne, Italie, Allemagne, Angleterre, qu'autres parties du Monde.

Revuës & corrigées suivant les premieres Editions imprimées à Paris, Rouën, Lyon, Avignon, Troyes, Hollande, & autres.

Avec la Vie de l'Auteur.

Et plusieurs de ces Centuries expliquées par un Sçavant de ce temps.

A LYON,
Chez ANTOINE BESSON, Marchand Libraire rue Tupin.

AVEC PERMISSION.

***

أتراجعُ بظهري الآن من فرط الإثارة وأنا أسترجعُ ما أعرفه عنه وهو كثير ...

(نوستراداموس) هو واحدٌ من أكثر الشخصيات المُثيرة للجدل في التاريخ الحديث، بدأ حياته مُحاربًا للحصول على لقب الطبيب ولكن لِحظِّهِ العسِر لعب القدَر لُعبته وكان وقت اجتياح الطاعون لأوروبا، فتمَّ إغلاق جامعة (أفينيون)، ثم طُرد من جامعة (مونبلييه) لمُمارسته بروتوكولات الصيدلة قبلَها بدون تصريح بعد أن درس الأعشاب الطبيعية أثناء رحلاته الخاصة في أرياف (فرنسا) الخضراء بعد إغلاق جامعة (أفينيون) السابق ذكرُها ...

بالطبع لا أتذكَّر حياته بكامل تفاصيلها، ولكن ما يُهمُّني الآن هو رحلته إلى (إيطاليا) فقط، فهي تُعتبَر النُّقطة الفاصلة ...

بعدَها تغيَّرت رغبته واهتماماته من الطب إلى الجانب المُظلِم من المعرفة، حيثُ التنجيم والفلك والعلوم الخفيَّة، فقرَّر أن يكتب تقويمًا سنويًّا للعام 1550 يسرد فيه أحداث السنة تباعًا، وقيل إنَّه دسَّ بعض النبوءات في الأحداث، فلاقى هذا الكتاب نجاحًا ملحوظًا جذب الانتباه إليه، ممَّا دفعه للتفكير في كتابةِ واحدٍ كلَّ عام ...

حتّى أتته فكرةُ أشهر ما كتب ...

***

تقطَّع الصوت وأخذ يخفُت حتّى اختفى تمامًا ولم يبقَ سوى هدير الأسطوانة وهي تدور، فقام (يوسف) من مكانه وسحبَها من تحت الإبرة، مسحَها بقُماشةٍ جافَّة من ضمن ما أحضره للتنظيف ثُم أعادها

مرَّةً أُخرى مكانها وأعاد الإبرة لنفس النُّقطة وأدار اليد لثوانٍ قبل أن يترُكها ليعود صوت الرجل مُتابعًا ...

***

أُلقي نظرةً على الرجل عبر فراغ البرميل الآن فقط لأطمئنَّ على مَخبئي ...

أراهُ ما زال مُتسمِّرًا في مكانه، مُحدِّقًا في الطبق، يتأمَّل سطح الماء في شرود، لا يكادُ يتحسَّس حافته بأنامِله في رفق، ثم يعود لشروده، قبل أن يُمسك ريشةً يغمسُها في حِبرٍ ويكتُب شيئًا ما في الكتاب أمامه، ثُم يعود لتأمُّله مرّة أُخرى ...

أنا في أمان، حتّى الآن، وأنا الآن في مكاني أُحاول أن أسترجِع ما أعرفه عنه أكثر ...

بعد نجاح كتاب التقويم، قرّر (نوستراداموس) أن يستمرَّ في الكتابة، ولكن على صعيدٍ أكثر تعقيدًا من مُجرد حوليات يحكي فيها أحداث السنة ...

وهُنا ظهر للوجود كتاب (القرون) المفتوح أمامه على الطاولة..

أحد أكثر الكُتب المُثيرة للجدل ولا يزال يحتلُّ موائد المُناقشات بين العديد من المؤمنين والمُشكّكين في عصرنا، عبارة عن كنزٍ من التنبؤات المَحكية في شكل رُباعيات وصل عددُها إلى 6338 نبوءةً مكتوبة بالفرنسية المخلوطة بعدَّة لُغاتٍ أُخرى مثل اليونانية والإيطالية واللّاتينية على هيئة رموز وعبارات غير مفهومة، خوفًا

من القبض عليه من قِبَل محاكم التفتيش بتُهمة الهرطقة التي كانت التُّهمة السائدة في هذا العصر، وعندها السجن كان رفاهيةً بعيدة عن الواقع، الحرق على الصليب بعد التعذيب كان هو الحل السريع المضمون و...

لحظة ...!

أسمعُ صوتَ جلبة، فأنظر عبر الثُّقب ...

أراهُ يتّجه نحو السُّلّم تاركًا النور مُضاءً كما هو، رُبّما ليأتي بشيءٍ ما من غُرفةٍ أخرى ...

رائع، أنتهزُ الفُرصة وأقفزُ نحو الطاولة، لا يُمكن أن أُضيّع فُرصة إلقاء نظرةٍ على هذا الكتاب عن قُرب ...

أتفقده سريعًا، لأجده مفتوحًا على صفحةٍ غير مُكتملة ورُباعية قد كُتبت لتوِّها:

فُقد، عُثر عليه مُخبّأً منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا ...

سيُحتفَل بـ (الباستور) وكأنه نصف إله ...

قبل أن يتم القمر دورته الكاملة ...

ستتلوث شمعته نتيجة أقاويل أخرى ...

أنا أعرف هذه الرُّباعية ...!

دورة القمر المقصودة هُنا بدأت من عدّة سنوات بالتوقيت الحالي، تحديدًا في العام 1535 ونهايتها بعد عدّة قرونٍ من الآن، تحديدًا

في 1889، ومَن يُؤمن بتنبؤاته مُقتنِع أن المقصود هُنا هو (لويس باستور) مُكتشِف دور الجراثيم في الطبّ ووجودها في الهواء وعليها سيُأسس معهدَه الشهير في نوفمبر 1889، والغريب أن اسمَه مذكور صراحةً وغالبًا المقصود هُنا أنَّ سُمعته التي ستُلوَّث ستكون نتيجة المُعارضة العنيفة الَّتي سيُعارضها له زُملاؤه الأكاديميين نتيجة الطُّرق المشبوهة التي يتّبعها في أبحاثه، بل والأحداث مذكورة بالتاريخ في توريةٍ مقصودة بذِكر دورة القمر!

دعني أرى واحدةً أُخرى، وها أنا هُنا بعد عدَّة صفحات، أجد واحدةً أُخرى من أشهر نبوءاته التي روَّجت لقُدراته:

سيتغلّب الأسد الصغير على الأكبر سنًّا ...

في ساحة المعركة في قتالٍ فردي ...

سيفقأ عينَيه في قفصٍ ذهبي ...

جُرحان، ثم يموت مَيتةً قاسية ...

هذه النبوءة بالذات ستتحقّق في غضون 5 سنوات من الآن، وستكون سببًا من أهم أسباب انتشار اسم (نوستراداموس) ومعرفة العامّة به.

المقصود هُنا هو الملك (هنري الثاني) والذي كان يتَّخذ من الأسد شعارًا له في بعض الأحيان، وستقع أحداثها أثناء احتفاله بزواج ابنتِه (مارجريت دي سافوي)، عندما سيُقرِّر عمل مُسابقة مُبارزة لإظهار المهارة والشجاعة والرجولة كما هي العادة المُتعارَف عليها

في هذه الفترة من التاريخ و...

ثوانيَ، أسمعُ صوتًا خافتًا يأتي من مكانٍ ما ...

إمممم، سأكتمُ أنفاسي، ولكن، السُّلّم خالٍ ...

لا أحد هُناك، الجو يبدو هادئًا ...

أُتابعُ مع أفكاري ...

سيمتطي الملك جوادَه أمام قائد الحرس الاسكتلندي (مونتجومري) الأصغر منه سنًّا بحوالي 7 سنوات إن لم تخُنِّي ذاكرتي ...

المعروف في مثل هذه المُسابقات أن كِلا الفارسَين يعدو نحو الآخر ورُمحه مفرود أمامه والغرض هو إسقاط الفارس الآخر من على صهوة جواده، والساقط يخسَر، وستُقام المُبارزة بين الملك وقائد الحرس مرتَين، وكِلتاهما ستنتهي بالتعادل، لن يسقُط أيٌّ منهما.

وهُنا سيُقرِّر الملك أن تكون هُناك مُبارزة ثالثة.

للأسف ...

وفيها سيرتفع رُمح قائد الحرس (مونتجومري) للأعلى قليلًا ومع اندفاعهما سينكسرُ الرُّمح على درع الملك، وتنسلُّ شظية خشبية من بين فتحة العين في خوذته لتخترقها وتصل إلى مُخِّه ويكون هو الجُرح الأول الذي ذكره (نوستراداموس).

والخوذة ستكون مطليّةً باللّون الذهبي ...!

أمّا الجُرح الثاني فسيكون من شظيةٍ أُخرى ستخترق حنجرته، وعليهما سيبقى الملك (هنري) طريح الفراش يتعذّب من الألَم لمُدّة 10 أيام كاملة قبل أن يموت ... وتتحقّق النبوءة.

للمرة الثانية يُخيّل إليّ أنّي أسمع صوتًا حفيفًا يأتي من مكانٍ ما، أتركُ الكتاب مكانه وأتحرّك بحذَرٍ نحو السُّلّم، أُلقي نظرةً للأسفل ولكن لا يُقابلني سوى ظلامٍ وسكون، أقف على وضعي لثوانٍ لأطمئنّ ...

لا شيء ...

أعودُ أدراجي حيثُ الطاولة، وقد قرّرتُ أن أُلقي نظرةً أخيرة قبل أن أرحل، وأُتابعُ تصفُّحي للكتاب، الكثير والكثير من النبوءات، لا أتذكر الكثير، ولكن مهلًا، أتوقّف على صفحةٍ مُعينة، حيث نبوءة مألوفة تقول:

دم العادلين سيُراق في لندن ...

التي ستحترق بالنار في ثلاثِ عشرينات وستة ...

وستسقط السيدة العتيقة من مكانها ...

وكثير من نفس الملّة سيُقتلون ...

أتذكّر هذه جيدًا ...!

أتذكّر أن أغلب المؤمِنين بقُدرات (نوستراداموس) يربطون هذه النبوءة بحريق (لندن) الشهير!

سيبدأ هذا الحريق الرهيب من مخبز (توماس فارينير) في شارع (بودينج لاين) وسيستمر لمدّة خمسة أيامٍ كاملة من الثاني من سبتمبر إلى اليوم السادس، ولكن من أيِّ عام؟!

نعم، كما خمَّنت بالضبط، العام 1666!

و66 هي ناتج جمع 20 + 20 + 20 + 6!

ثلاث عشرينات وستة كما ذكره (نوستراداموس) هُنا!

أي أنّه ذكر المدينة والتاريخ بدقّة مُذهلة!

يُعتقَد أن المقصود بدم العادلين هم المواطنون الأبرياء الذين سيقضون نحبَهم في الحريق بدون أي ذنب، وذكر العدد هُنا بالـ (كثير) عكس ما سيُذكر في التاريخ على أنَّ الضحايا عددُهم قليل، وذلك لأن في هذا العصر عادةً ما يتم تجاهُل تعداد الفُقراء ومعدومي الأهلية وكل مَن لا يجري في دمِه الدم الأزرق، فقط النُّبلاء وذوو الأملاك هم مَن لهم الاهتمام الأوحد.

و(السيدة العجوز) هُنا المقصود بها كاتدرائية (القديس بولس) القديمة التي ستُدمَّر في الحريق، وطبعًا هُنا كان تفسير (كثيرٌ من نفس الملَّة) أنَّ هؤلاء هم المسيحيون مَن سيموتون في الحريق في هذه الكاتدرائية والكنائس المُحيطة ممّن كانوا مُختبئين بداخلها هربًا من النيران ...!

أنا أحاول أن أتمالك أعصابي من فَرْط الإثارة، ولكن أعتقد أن أثرها واضح في صوتي، لا زال من الصعب عليّ أن أُصدّق أنّي أقف في

حضرة (القرون) وهو لا يزال يُكتَب!

آلاف من النبوءات ستضمُّها دفَّتا هذا الكتاب، وكلُّ واحدةٍ منها سيتم ترجمتها بطريقةٍ ما نتيجة لتعدُّد اللغات والرموز الخفيَّة التي يستخدمها (نوستراداموس) ومدى اعتقاد العامة وإيمانهم بقدراته، ومهما كانت الحقيقة فسيظلُّ اسمه خالدًا محلَّ الجدال على مرِّ العصور.

لا أُريدُ أن أختبر حُسن حظِّي أكثر من هذا، فربَّما حان الوقت لأكتفي بهذا القدر وأرحلُ من هُنا قبل أنّ يكتشـ...

QUI ÊTES-VOUS...!!!

***

ارتفع صوت جَلبة عالية قبل أن ينقطع الصوت تمامًا إلَّا من صوت هدير الأسطوانة وهي تدور لثوانٍ على محورها حتَّى توقَّفت هي الأخرى ويسود الصمت المكان، لم يتحرّك (يوسف) من مكانه وهو لا يزال يُحدِّق في الأسطوانة معقودَ الحاجبَين وهو يُفكّر فيما سمع.

من الواضح أن الرجل قد انكشف أمرُه من ذلك الشيخ، وخمَّن (يوسف) أن الهُتاف كان شيئًا على غرار (ما هذا؟) أو (مَن أنت؟)، ولكن ...

ما كان هذا بحق الجحيم؟! هل هو حقيقي؟! هل ما سمِعَه حالًا هو تسجيل حقيقي لرحلةٍ عبر الزمن؟ هو يعرف (نوستراداموس)، فهو يُحب القراءة وخاصةً في غرائب الموضوعات، ولكن كيف حدث

ذلك؟ وكيف كان باستطاعته التسجيل أصلًا على أسطوانة هُناك؟ أم الأسطوانات هي مُجرّد تفريغ لأحداثٍ تم تسجيلها بطريقةٍ أُخرى؟

كان الأمرُ غريبًا ومُثيرًا في نفس الوقت، ولكن هل جميع هذه الأسطوانات من نفس العينة؟

عشرات الأسئلة تطفو الآن في سماء الغُرفة تكادُ تقتُل (يوسف) فضولًا، ربّما يجد إجابات بعضها في الأسطوانات الأُخرى؟

لا يدري، ولكن يُمكنه أن يُجرِّب ...

فقام من فوره من مكانه واتّجه نحو الصندوق وأخذ يعبث في الأسطوانات علّه يجد عنوانًا مألوفًا حتّى وجد واحدةً مُعنونة بـ (قلعة هوسكا) والتي كان قد شاهد فيلمًا وثائقيًا عنها منذ شهور ويتذكّر أنّها حازت على اهتمامه وقتها، ما هي احتمالية أن يُشاهد فيلمًا وثائقيًا عن مكانٍ ما فتأتي له الفرصة كي يعرف عنه أكثر من شخصٍ زاره زيارةً فريدة من نوعها، فسحب الأسطوانة برفقٍ من غلافها الورقي المُهترئ ووضعها مكانها تحت الإبرة.

وكان قد وعى الدرس من أسطوانة (نوستراداموس)، ففتح صندوق المُستندات وأخذ يبحث حتّى وجد ضالّته، ملفًّا باسم (هوسكا) ...

أخذه في يدِه واتّخذ مكانه على كُرسيه مرّةً أُخرى بعد أن أدار ذراع الجرامافون وبدأ الرجل يحكي مرّةً أُخرى بصوته العجوز...

جانب نجوم قلعة (هوسكا)
1279

إحم، هل الصوت مضبـ... نعم ... حسنًا، لا أدري بالضبط أين سيقع هذا التسجيل بين حكاياتي، ولكنّي أسجّله الآن بعد عودتي من رحلة (نينوى) في الألفية الثالثة قبل الميلاد، فليس بالضرورة أن يكون ما أشهده من أحداثٍ هو نفس الترتيب الزمني لتسجيلي إيّاها، و... وإمممم، حسنًا ...

المُهم، القرن الثالث عشر، العام 1279 ميلاديًّا، أنا الآن في (أوروبا) وتحديدًا فيما سيُطلَق عليه من حيثُ جئت دولة (التشيك)، وإن شئنا الدقة أكثر، فأنا على بُعد 47 كيلومترًا شمال المكان الذي سيكون العاصمة (براج) فيما بعد، أو على الأقل هذا ما أتذكّره حتّى الآن.

أرجو ألَّا تنسى أنّي أحتاج بعض الوقت حتّى أسترجع كامل ذاكرتي بعد كل انتقال، على الأقل حتّى أجدَ حلًّا لهذه المُعضلة...

قبل أن أستكشِف ما أنا هُنا بصدده، أودُّ أن أُوثِّق مشهدًا مرَق أمامي وأنا في طريقي إلى هنا عبر الطريقة المُعتادة، رأيتُ أنّني في مكانٍ ما، أقفُ على باب قاعةٍ واسعة، لمحتُ على إحدى حوائطها تقويم العام 1944، ويحتلُّ وسطها خيمة مقفولة يقِف حولها مجموعة من الناس في أرديةٍ بيضاء ومشغولين بالعبث في أجهزةٍ إليكترونية مليئة بمصابيح ولمبات صغيرة مُضيئة تعلوها شاشات خضراء مليئة بالبيانات والأشكال الهندسية، تختفي أغلبية وجوههم

خلف أقنعة رؤيةٍ ليلية، وقتها وقبل أن أتحرَّك من مكاني اندفع نحوي جنديان بزيٍّ زيتي اللون يُزين الذراع اليسرى منه الصليب المعقوف إيَّاه، وتعالى هتافهما HALT .. ACHTUNG ... وإن كُنت لا تعرف فهذان بالألمانية، أيّ أنهما كانا يصرخان فيَّ بأن (أنتبه) و(أتوقّف) ... و...

واختفت الرؤية ...

وجئتُ ها هُنا ...

سأحاول لاحقًا أن أتذكّر ما كان ذلك ...

أما الآن، فأنا أتحرّك ببُطءٍ، حاملًا كشّافًا صغيرًا يبعث دائرةً محدودة من الضوء أمامي، وأنا أخطو بحذَر فيما يبدو وكأنَّه ممرٌّ صخري التكوين، كُتَل من الأحجار الضخمة تُشكِّل جوانبه، ويبدو غير مطروقٍ لسببٍ ما أجهله.

صوتٌ ما يتردّد في عقلي يُخبرني أنّني في قلعة، ذكريات ضبابية تتراقَص في مُخيلتي.

أعبثُ في جيوبي، فأجدُ قنينةً ما بها سائل أصفر اللون ثقيل القوام، أتشمّمه فأجد له رائحةً عُشبية عطرية، وهاجسٌ ما بداخلي يُخبرني أن أدهن نفسي به، لا أدري لماذا، وأنا دومًا ما أُصدِّق هواجسي، لم تفشل مرّةً في إنقاذي.

انتهيتُ ووضعت القنينة في جيبي مرّةً أُخرى وأنا أتحسَّس طريقي مُتجاهلًا صوت الزحف الخافت الذي بدأ يتناهى إلى مسامعي عن

بُعد ...!

وصلتُ إلى ممرٍّ أُفقي يمتدُّ يمينًا ويسارًا، تركني في حيرةٍ لثوانٍ قبل أن أحسم أمري وها أنا أسلُك اتجاه اليسار، لا تسألني لمَ، وبعد عدّة أمتار انتهى الممرُّ بحائطٍ اصطدمت به خيبة أملي للوقت الضائع بدون نتيجة، قبل أن أرفع كشّافي للأعلى لأتفقد الحائط، فقط لأجد شعارًا دائريًا ملكيّ الطابع، منحوتًا في مُنتصف الحائط، أقتربُ أكثر لأتفحّصه، أراهُ يُمثّل فارسًا مُدرّعًا ومُمسكًا رمحَه ويمتطي جوادًا مُحلًّى بالدروع هو الآخر، ويهجم كلاهما نحو اليسار، يُحيط بهما مجموعة من الرموز والحروف التي لم أفقَه منها شيئًا، سوى كلمتَين وحيدتَين.

(أوتوكار الثاني).

همممم، (أوتوكار)، تنساب إلى ذاكرتي صورة لـ (تان تان) وهو يُهرول خارجًا من بوابة حديدية يحرسها جُنديين في زيٍّ هو مزيج من الأحمر والأزرق والأبيض بينما يَسبقُه (ميلو) كلبُه الأبيض الصغير بينما بينما فوقهما وفي خطٍّ أحمر قانٍ كُتب عنوان العدد (مغامرة تان تان وصولجان الملك أوتوكار) و... وهُنا شعرتُ بومضاتٍ تضرب في جنبات عقلي وشيء أشبَه بالتيار الكهربائي يسري في أوصالي، وها هي المعلومات تهبط على ذاكرتي كالصاعقة، الآن أنا أعرف أين أنا.

أنا في قلعة (هوسكا) ...

وسرت في جسدي قُشعريرة باردة ...

أتذكّر أنَّ هذه القلعة بُنيت على الطراز القوطي قبل 25 سنة من الآن، في 1253 على يد صاحب الشعار، الملك (أوتوكار الثاني) ملك (بوهيميا) لتكون مركزًا لحكمِه، ولم يكّن يعرف أنّ سُلطتها ستنتقِل للطبقة الأرستقراطية واحدًا تلوَ الآخر، تتجدّد ويُضاف إليها ثم تُهمَل، ويتم ترميمها وتتعدّل قبل أن تُهجَر وتُباع ويستمر الحال على هذا المنوال حتّى تصل ملكيتها إلى جهةٍ ما ...

جهة الآن أعرف أين رأيث شعارها ...

المُهم أنّي الآن أدرك أين يُفترَض أن أذهب ...





كان (يوسف) يُتابع كلام الرجل باهتمامٍ بالغ وقد فتح الملف في يدِه وأخرج منه عدّة صور فوتوغرافية للقلعة، بعضها مُصوَّر من الجو، فتبدو فيه القلعة مُربعة الشكل طويلة الجُدران تقف وحيدةً وسط الأدغال بلا أثرٍ لأي مبانٍ قريبة منها من أيّ نوع ...

والبعض الآخر من مسافةٍ قريبة مع بعض الصور لها من الداخل،
إحداها تصوِّر قبوًا ما يبدو مُخيفًا بأشياء لم يدْرِ (يوسف) ما كُنهها ...

وأُخرى تصوِّر بئرًا عميقةً لا يبدو لها قرار ...

تصفَّح خلالها بُسرعة وهو يُتابع الرجُل الذي استطرد قائلًا ...

***

المكان المُراد في قاع القلعة ...

عُدت الآن أدراجي عبر الممرّ الأُفقي لمكان الْتقاء الممرَّين، ثم أُتابعُ في الممر الأيمن بحذَر، فلا بُد أن أستمرَّ في النزول، مُتجاهلًا رائحة العفونة الكريهة التي بدأت في الانتشار والأصوات المُخيفة التي تعالت أصداؤها في الممرَّات والتي أُدرك الآن أين كان مصدرها ...

البئر ...

تذكّرتُ مشهد النوافذ بأعلى القلعة أثناء قدومي، نوافذ وهمية تُخفي خلفها جُدرانًا، أي أنّها عبارة عن خُدعة لتوهِم الرائي من الخارج أنّها نوافذ تُفضي لداخل القلعة في حين أنّ وراءها مسدود، والسبب وراء ذلك هو نفس سبب قلّة التحصينات في قلعةٍ مبنية على حافة جُرُفٍ جبلي في منطقةٍ نائية بعيدة عن العمار ومُحاطة بغابات كثيفة وكثبان رملية ومُستنقعاتٍ خاصةٍ في مكان من المُفترَض أنّه مقرٌّ إداري للملك، والسبب هو أنّ هذه القلعة ما هي إلّا واجهة، واجهة مُهمَّتُها الوحيدة هي إخفاء ما بالأسفل ...

البئر ...

تتصاعد حدّة الرائحة، وهذا غريب في قلعةٍ تُعدُّ جديدةً ولم تُسكَن بعد حتّى هذه اللحظة، بل إنّها بلا مطبخ ولا توصيلات مياه وستظلُّ على هذا الوضع في الأوراق الرسمية حتى القرن الواحد والعشرين،

فقط ستُفتَح للزيارة وفقط بعض أجزائها، والجُزء حيث أتّجه الآن ليس منها ...

وصلتُ إلى ممرٍّ قصير ينتهي ببابٍ خشبي ضخم بدون أي ملامح، وعندما دفعتُهُ برفقٍ وجدتُ نفسي في القاعة إيَّاها، نفس القاعة الواسعة التي رأيتُها في طريقي إلى هُنا، حيث هجم عليّ الجنود النازيين كما ذكرتُ في بداية التسجيل.

كان النازيون هم الجهة التي استولت على القلعة إبّان الحرب العالمية الثانية، وذلك لاهتمام (هتلر) البالِغ بأمور الماورائيات والأبحاث العلمية الغريبة كما هو معروف عنه، وكانت هذه القلعة هي إحدى تجاربهم، بعد ما يقرُب من السبعة قرون من الآن، وفي هذا المكان بالذَّات ثبَّتوا خيمتهم، أعلى هذه البئر ... كانوا يُحاولون معرفة ما تحتويه وإلى أين تقود وباءت كلُّ محاولاتهم بالفشل ...

ها أنا أنحني قليلًا عليها وأجفل للحظةٍ لدى سماعي لأصواتٍ تتناهى إلى مسامعي وكأنَّها تتسلّق جُدرانها في بُطء، وهذا يحثُّني على الانتهاء من مُهمَّتي هُنا والعودة لزمني ...

كان الهدف الرئيسي من بناء هذه القلعة — من وجهة نظر ساكني القُرى المُحيطة بها — هو إخفاء هذه البئر وحمايتها من المُتطفلين، ويُقال إن الدور الأول أعلى البئر ما هو إلى كنيسة صغيرة مَبنية خِصِّيصى لتطهير المكان بعد أن امتلأت بالأيقونات الدينية وتماثيل الملائكة والقديسين حتَّى تكون خطَّ دفاع أمام الأهوال المحبوسة بالأسفل ومنعها من الخروج لعالِم البشر البائس ...

وعندما سُئل الفلاحون عن أصل هذه الحكايات، ذكروا أن هذه البئر ليست بئرًا بالمعنى المفهوم، بل هي فتحة تؤدي إلى الجحيم نفسه، ولهذا تُسمَّى في لُغتهم بـ (البوابة إلى الجحيم)، حيث لا قرار لها ولا أحد يعرِف ما تحتويه وكلُّ مَن اقترب منها ادّعى رؤيته لمخلوقات غريبة هي مزيج من البشر والحيوانات تزحف خارجةً من الفتحة أثناء الليل، بل وذهب ببعضهم الخيال بوصفهم لكيانات أُخرى مُجنَّحة تخطف كلَّ مَن هو تعيس الحظ بمروره من هُنا وتسحبُه لقاع البئر وعندها لـ ...

***

توقَّف الرجل عن الكلام ولم يتبق سوى صوت تنفُّسه البطيء، فاعتدل (يوسف) في مجلسه وهو يقترب من الجرامافون ويُصغي سمعَه أكثر وأكثر وهُنا تناهى إلى مسامعه صوتٌ خافت للغاية يكادُ يختفي خلف صوت هدير الأسطوانة وهي تدور على محورها، صوتٌ اقشعرَّ له بدن (يوسف) في قوَّة ...!

صوت فحيح بعيد ممزوج بصوت جسمٍ ثقيل يزحف على الأرض ...

لا بُد وأنَّ هذا ما سمعه الرجل ففضَّل أن يصمت ...!

* هل هذا معناه أن الرجل يُسجل أحداثه مُباشرةً على الأسطوانة؟ *

كيف هذا؟

وهُنا سقطت ورقة من الملفِّ الذي كان يُمسِكه في يده، جعلَه

صوت سقوطها على الأرض يجفل للحظة، ورقة لم يُلاحظها من قبلُ كانت مُلتصقةً بالداخل، فرفعها ليُلقي عليها نظرةً سريعة سُرعان ما جمَّدته أكثر في مكانه ...



كانت الورقة عبارةً عن صورة كرتونية للقلعة مأخوذة من زاوية جانبية وكأن القلعة نفسها محمولة على أكتاف شيطانٍ مُخيف بقرنَين وعينَين ممسوحتَين لا يبدو منهما سوى بياضٍ بلا أي تفاصيل بينما تتصاعد من صدره نيران عظيمة مصدرُها نُقطةٌ ما في الغالِب هي البئر الملعونة، وبالرغم من أن الصورة توضيحية بحتة إلَّا أنها كانت كافيةً لتبثَّ الرُّعب في أوصال (يوسف) ...

ارتفع صوت ضربات قلبه وقد نال منهُ التوتر وهو يتخيَّل نفسه مكان الرجل، في نفس الوقت الذي ارتفع فيه صوت حفيف خطواتٍ

وحركة خافتة مصحوبة بصرير بابٍ قديم، تبِعَه صوت الرجل وهو يُتابع هامسًا بصوتٍ مرعوب ...

***

يبدو أن الوقت قد حان لذهابي من هذا المكان اللعين، فما أسمعه الآن لا يُبشّر بخير أبدًا، لذلك أغلقتُ الباب مؤقتًا، ولكن لا أضمن أن يقي ذلك شرَّهم، فهم يجولون في جميع أنحاء القلعة، ولا بُد وأن يعودوا ها هُنا ...

أين توقَّفت؟

نعم، حكايات قاطني القُرى القريبة ...

قيل إنَّه أثناء بناء القلعة كانوا يأتون بالمساجين المحكوم عليهم بالمؤبّد أو بالإعدام ويعرضون عليهم صفقة العُمر، أن ينزلوا في البئر ويأتوا بخبرٍ ما في قاعها في مُقابل العفو الشامل، فكانوا يأتون بهم مربوطين بحبالٍ طويلة ويُنزلونهم عبر الفتحة ببطءٍ حتّى يتسنّى لهم استكشاف ما بالأسفل، ولكن لم يصِل منهم سوى الرُّعب والهلع، فأحدهم لم يُكمل ثوانيَ بالأسفل حتّى تصاعدت صرخاته في ذُعرٍ وهو يترجّاهم ليرفعوه مرّةً أُخرى، وما إن وصل لحافة البئر مرّةً أُخرى حتّى صدم منظرُه الجمع.

كلّا لم يكُن نصف جثُّة كما هو الحال في أفلام الرُّعب ... بل كان عجوزًا ...!

قال الشهود إنّه صار أشيبَ بملامحَ مُجعّدة، كِبر ما لا يقلُّ عن 30

سنة في الثواني القليلة التي قضاها بالأسفل ولم تنقطع صرخاته حتَّى بعد أن سحبوه، ولم يُخبر أحدًا بما رآه ولم يُعد عقله كما كان، وحتَّى هذه اللحظة التي أنا فيها هُنا لا يزال هذا الرجل نزيلَ إحدى المصحَّات العقلية القريبة من هُنا، وسيموت بعد سنتَين من الآن ...

سيموت ومعه سِر البئر ...

***

صمت الرجل مرّةً أُخرى بعد أن أصبح صوته مهزوزًا من الخوف، في الوقت الذي كان صوت الحفيف أعلى ممّا كان عليه وارتفع صوت ضرباتٍ على الباب بدأ خافتًا وسُرعان ما أصبح عاليًا ومُخيفًا وظهر أثره في صوت الرجل وهو يُتابع في فزع ...

***

لا بُد ... لا بُد وأن ... أ ... أختفي من هُنا الآن ...

المُهم، أن هذا هو أهم ما حدث هُنا ...

لا أدري ما تفسير ما يحدُث هُنا، ولا ما هي هذه الأصوات ولكن يبدو أن جميع ما قيل عن هذه القلعة حقيقي، بالرغم من عدم وجود أي دليلٍ علمي في عصرنا، بل إن ما يُقال عنها هو محض إشاعات بغرَض الدعاية لأصحاب القلعة التي أصبحت ملكيةً خاصة من بعد الحرب العالمية الثانية، بل إن البئر نفسها غير مرئية في عصرنا بالرغم من أن بعض زوّار القلعة ادّعى سماعه لأصواتٍ تأتي من الأسفل هي مزيج من صرخات مكتومة ونبش أظافر على جُدرانٍ

حجرية ...

يبدو الأمر وكأن الدكتور (أحمد خالد توفيق) كان على حقٍّ وهذه البئر هي فتحة لجانب النجوم، أليس كذلك؟

والآن يجب أن أذهب وإلَّا ستكون هذه هي نهاية رحلاتي ...

فالأمر لا يبدو مُطمـ ...

آااااه ...!

***

اختلط صوت صرخات الرجل مع صوت خشبٍ ينكسر، على الأرجح هو باب القاعة مع أصواتٍ مُخيفة هي مزيج من فحيحٍ وعويل وزمجرة حيوانية، وكأنَّ الجحيم قد فتح أحد أبوابه هُناك، كل هذا و(يوسف) على طرف مقعدِه يكادُ التوتُّر أن يلتهِمَه الْتهامًا حتّى صمتت الأصوات تمامًا وتوقَّفت الأسطوانة عن الدوران ومعها بدأ تنفُّس (يوسف) يعود لطبيعته ...

كان وقع الأمرِ عليه أعنفَ من التسجيل السابق ...

ربَّما كان تسجيل (نوستراداموس) غريبًا أكثر منه مُخيفًا على عكس موضوع القلعة هذه، التي كان بالفعل يعرف عنها القليل من الفيلم الوثائقي الذي كان قد شاهدَه من قبل، ولكن كونه عاش تفاصيله بنفسه الآن ...

يا الله ...

كانت تجربةً لم يحلُم بها ولا يعرف مَن عاش مثلها غيره ...

التقط أنفاسه لدقائق، ثم نظر إلى ساعته التي قارب عقرباها على الالتقاء عند الثانية، وفكّر في مُهاتفة (إيمان) ولكن منظر صندوق الأسطوانات كان أكثرَ إغراءً بالنسبة له، فقام من مكانه وأخرج الأسطوانة من الجرامافون وأعادها مكانها والْتقط عدَّة أسطوانات من الصندوق وأخذ يتطلّع إليها للحظاتٍ وهو يُفاضِل بين الاكتفاء بهذا القدْر من الأدرينالين لليوم والعودة للمنزل أو أن يستمِع لتسجيلٍ آخر قبل أن يرحَل، ثُم ما لبث أن حسم أمره وهو يعتذِر إليها في سرِّه، واختار أسطوانةً أخرى لفت عنوانُها انتباهه لغرابته وأعاد باقي الأسطوانات إلى الصندوق ...

مسح الأسطوانة بيدِه ووضعها مكانها في الجرامافون، أدار الذراع لثوانٍ قبل أن يتراجَع مكانه على الكرسي الوثير ويأخُذَ نَفَسًا عميقًا ليمحوَ من رأسه تأثير (هوسكا) وكالعادة يبدأ الرجل في الحديث بصوته الرخيم ...

(روانوك) والمُستعمَرة المفقودة
1590

انتفض جسدي في قوّةٍ وانطلقَت من حنجرتي شهقة عنيفة شقَّت سكون المكان حولي، في محاولة لدفع الأُكسجين إلى رئتيَّ اللتَين وكأنّهما لم تعملا من قبل، وأنا أفتح عينيّ بسُرعةٍ ليؤلِم ضوء الشمس الحارق مُقلتيّ ...

كان الانتقالُ عنيفًا هذه المرّة ...

أستندُ على ذراعي لأعتدل وأرفع الأُخرى إليهما لأُخفيهما حتَّى اعتادتا إحساسَ الوخز ففتحتُهما مرّة أُخرى، أتطلَّعُ حولي لتفقُّد المُحيطات، أنا مُلقًى تحت شجرة وارفة كبيرة قُرب أكمَةٍ خضراء مُزدهرة، وكعادة رحلاتي، أعرف أنّه لا بُد من بضع دقائق بعد انتهاء الانتقال حتى يُصبح لديّ ذاكرة كاملة عن كينونتي وسبب وجودي في المكان.

أتطلَّعُ إلى ثيابي، لونها أحمر غريب، ثياب عسكرية الطَّابع قديمة الطراز، ربّما مُنتصف القرن الماضي ولكنّي لا أستطيع تحديد الحقبة ولا البلد بالضبط من الوهلة الأولى.

أقِف في مكاني، وأنا لا أزال أترنَّح قليلًا مِن أثر الرحلة، أُحاول مسح المكان الشاسع بعينيّ مُعتصرًا ذاكرتي علَّها تعمل أسرعَ وأعرف لِمَ أنا هُنا وماذا حدث أو ما سوف يحدُث، لا أستطيع أن آتي بأيٍّ حركةٍ مُفاجئة حتَّى أعتاد المكان، لا أدري أي أخطار قد تكون على مقربة منِّي.

أبدأ بالترجُّل قليلًا حولي مُستكشفًا، وها أنا أصل لربوة، مُرتفعة قليلًا عن باقي الأرض، قُرب حقل أخضَرَ واسع، مكان بدا بِكرًا مُقارنةً بالرحلات السابقة، وعلى بُعدٍ أرى بقايا عمودًا من دخانٍ أسود مجهول المصدر اختفت بدايته خلف مجموعةٍ من الأشجار البعيدة وتتلاشى نهايته في السماء.

مهلًا ...

يرتجُّ جسدي وينتفِض انتفاضاتٍ قصيرة وسريعة، وأشعرُ بدغدغةٍ تُشبه الكهرباء الخفيفة في أوصالي، أنوار لامعة تضربُ عينيَّ مع نفس الدغدغة في خلايا مُخِّي الرمادية تُنبِئُني بانسيابِ دفقةٍ من الذكريات والمعلومات.

سأتوقَّف مكاني مُستقبلًا إيَّاها في فضول.

نعم، مُنتصف القرن السادس عشر.

العالم الجديد.

هذه الفترة من التاريخ هي فترة الفضول البشري لما وراء الحدود المعروفة، حُمَّى الاستكشاف القاتلة، فبغضِّ النظر عن رحلات الفايكنج وقبائل الشمال التي لم تُسجَّل سوى في ملاحِمِهم، إلّا أن الكثير من العالم لا يزالُ مجهولًا للأوروبيين الذين ضاقت بهم الأرض بما رحُبت، وخاصةً بعد انهيار القُسطنطينية وتعذُّر الطريق أمام القوافل التجارية عبر (طريق الحرير) إلى (الصين) والرغبة العارمة في إيجاد طريقٍ آخر مُختصرٍ غير الطريق البحري الطويل حول

(إفريقيا) وصولًا إلى (الهند) والذي تحكَّمت فيه (البرتغال).

وكان اكتشاف القارتَين الأمريكيتَين نُقطةً فاصلة في تاريخ البشرية.

وهُنا سأُلخِّص سريعًا، بدايةً من العام 1492 والقصَّة المعروفة من مادة التاريخ في الإعدادية، عن إبحار (كريستوفر كولومبوس) من ميناء (بالوس دي لا فرونتيرا) في (قشتالة) في (إسبانيا) على رأس عددٍ من الرحلات الاستكشافية سعيًا وراء الوصول إلى الهند عن طريق الغرب و...

ووصولي هُنا الآن بعدَها بمائة عام، تحديدًا في اليوم الثامن عشر من الشهر الثامن من العام 1590، ولِمَ ذلك اليوم بالتحديد؟

لأن ذلك اليوم حُفر في تاريخ الولايات المُتَّحدة الأمريكية على أنَّه لُغز لم يتوصَّل أحد إلى حلِّه حتَّى لحظة توثيق هذا التسجيل...

فاسمح لي أن أبدأ بإعطائك مُقدِّمةً سريعةً قبل أن أحكي ...

***

ساد الصمت لحظاتٍ إلَّا من صوت جهاز الأسطوانة وهي تدور، ظن (يوسف) أنَّها قد أصابها عطَب ما، فهمَّ أن يقوم ليرى ما بها قبل أن يلحقَه صوت الرجل وهو يزدرِد لُعابه وهو يُتابع ...

***

من بعد الاكتشاف ومع مرور الوقت بدأت الجماعات الأوروبية

من إنجليز واسكتلنديِّين وآيرلندِيِّين وغيرهم في التدفُّق للأراضي المُكتشَفَة حديثًا طمَعًا في الثروات الطائلة التي يُخفيها المجهول ونسجَتْها الأساطير من مدنٍ مصنوعة كاملة من الذهب إلى كهوفٍ مليئة بأواني المجوهرات والأحجار الكريمة وخلافه من عيِّنة (علي بابا والأربعين حرامي) ومحاولات أوائل المُستوطِنين في اللحاق بأفضل البقاع في الأراضي الجديدة، وحيثُ أقِف الآن هي إحدى هذه البقاع.

عرفتُ أن أولى الرحلات الَّتي وطأت أقدام أفرادها هذه الأرض كانت في العام 1584، أي منذ ست سنوات، بقيادة الكابتن (آرثر بارلو)، أحد قائِدَين عسكرِيَّين تحت إمرة النبيل الإنجليزي (سير والتر رالي) الذي خرج من (إنجلترا) لإرضاء (الملكة إليزابيث) وصولًا لِما أصبحت الآن القارة الأمريكية الشمالية، وبالتحديد ولاية (كارولينا الشمالية)، وأيضًا لاستكشاف ما يُمكن استكشافه ثم عمل عملياتِ مسحٍ للأراضي ورسم خرائط موثَّقة لها تمهيدًا للجماعات التي ستلِيهم لسُكنى العالم الجديد ورفع راية الملكة.

وكان من ضمن هذه المجموعة العالِم (توماس هاريوت)، صاحب أول معملٍ علمي على الأرض الجديدة، وأيضًا الفنان (جون وايت) المسئول عن رسم خرائط المكان وتسجيل طبوغرافية الأرض ورسم أوجه أفراد القبائل الأصلية وتسجيل عاداتهم وتقاليدهم وهكذا.

***

انقطع الصوت فجأة، ثم ظهرت أصوات حركة خافتة وأغصان

تتكسَّر قبل أن يُتابع الرجل.

***

أُكمِل بعد أن مادت بي الأرض للحظاتٍ من فرط الطاقة التي تسري في عروقي والمعرفة العارمة التي اجتاحتني، أدورُ بعينيّ في المكان، هُناك صخرة ضخمة على بُعدٍ أتَّجِه إليها وأتَّخِذُ من جانبها المُستوي مَسندًا لظهري المُرهَق.

وعليها تُتابع الأحداث انسيابها إلى عقلي، لأتذكَّر أن ثاني مجموعةٍ من المُستكشفين تصل لهذا المكان كانت في العام 1585،وهذه بالذَّات لم تكُن مُسالِمة خالصة، بل كانت تحمِل في طيّاتها أسلحةً ومُعدّات علمية لغرَض إجراء تجاربهم كما يحلو لهم، وعلى مَن يحلو لهم، نعم، أنا أعني ما قُلت.

استغلال للمساكين الذين ظنَّ بعضهم أن الرجل الأبيض هو المُخلِّص وأنه مبعوث الآلهة، ولم يدُر في خلدِهم أنه رسول الموت.

المُهم أن تلك المجموعة كانت سببًا لقلاقل عدّة في المنطقة لدخولهم في صراعاتٍ مع السكان المحليين من القبائل التي سكنت المنطقة، والسبب كان قائد المُستعمرة (سير رالف لايين) صاحب الأسلوب العدائي والأخلاق القميئة الذي استغلَّ كل الموارد الطبيعية لدى تلك القبائل، ولم يترك أيًّا منها لأصحابها الأصليين وتعمَّد ترهيبهم وقتل أفرادٍ منهم أمام أنظار ذويهم لإرسال رسالة خضوع وسيطرة لم تصِل لعدَّة أسباب أهمُّها كان تأخُّر سُفن المؤن والإمدادات القادمة من (إنجلترا)، وعليها اضطُرَّ (لايين) للعودة إلى

(إنجلترا) خوفًا على حياته.

أما المجـ...عـ... الثالـ... فهـ... ما يهـ ... نـ...

***

بدا الصوت غير واضحٍ في هذا المقطع فقطَّب (يوسف) حاجبَيه في ضيقٍ وقام من مكانه، واتّجه نحو الجرامافون فأوقفه وسحب الأسطوانة منه مسحَها بقطعة القماش الناعمة بجانبه، قبل أن يلمح الإبرة التي تدور على الأسطوانة وقد تآكل طرفُها فسحبَها من مكانها وأخذ يعبث هُنا وهُناك على المكتب وعلى الأرفف حتّى وجد ضالّته في أحد الأدراج ...

عُلبة مُربَّعة صغيرة بها خزين من الإبر عادةً يَحتفظ بها أصحاب الجرامافونات كبديلٍ للإبر التي تتآكل من كثرة الاستخدام، فأخرج منها واحدةً جديدة وثبّتها في مكانها قبل أن يُعيد الأسطوانة مكانها على محورها ويُجرِّب فيتعالى صوت الهدير وتعلو ملامح (يوسف) ابتسامة فَخُور وهو يستمع إلى صوت الرجل الذي ارتفع مُتابعًا في وضوحٍ هذه المرَّة.

***

أما المجموعة الثالثة فهي ما يُهِمُّنا هُنا ...

وصل أفرادها للمكان قبل وصولي بثلاثِ سنواتٍ في العام 1587على دفعات، عائلات مكوّنة من 90 رجلًا، و17 امرأة، و11 طفلًا، ويُمكنك أن تُخمِّن أن هذه المجموعة بالذّات لم تأتِ للقتال ولا

للمناوشات، بل هي محاولة للسُّكنى في سلامٍ واستيطان المنطقة ليس أكثر، بغضِّ النظر عن مُوافقتك على المبدأ من عدمِه، فالأمر قد تم بالفعل، واستقرّت المجموعة في هذه المنطقة تحديدًا حيث سكنت المُستعمرة السابقة في المكان الذي حمل الاسم الملعون ...

جزيرة (روانوك Roanoke) ...

ما إن تردّد الاسم في جنبات عقلي حتّى ومضَت القصّة كاملة، أنا الآن أعرف لِمَ أنا هُنا بالضبط، قُمت من مكاني مُستندًا على الصخرة وأنا أبحثُ عنها حولي، ما دمت جئتُ هُنا فلا بُد أنَّها قريبة، أخذ منِّي الأمر بضعَ دقائق حتّى عثرتُ عليها قُرب الشاطئ، فأخرجتُ من جَيبي القلَم والمُذكِّرة إيّاهم وأنا الآن أنقُشُ ما أرى بالتفصيل، وأنت تعرفُ الآن مَهارتي في الرسم فلم يكُن الأمرُ صعبًا.

أرسمُ وأنا أختلسُ النظر إلى البحر مُنتظرًا قدومَه.

القائد الجديد (جون وايت).

لا بُد وأنّه في طريقِه إلى هُنا على رأس مجموعةٍ جديدة من (إنجلترا)، مجموعة قد تأخَّرت بسبب الحرب التي قامت بين (إنجلترا) و(إسبانيا) ممّا جعلها تعود أدراجها للوطن بعد أن كانت في طريقِها إلى هُنا مُحمَّلةً بالمؤَن والبضائع لكسب ودِّ القبائل ونزع فكرة الاحتلال والاستعمار من عقولهم، والآن هو مَوعد وصولها، ولا يدرِي (وايت) أيَّ مُفاجأة في انتظاره.

انتهيتُ من رسم ما وجدتُه وسأُرفقُه مع هذا التسجيل كالعادة.

***

انتبه (يوسف) أنَّه لم يُخرج المُستند إيَّاه، فقام للصندوق الآخر وسحب منه ورقةً قديمة مُصفرَّة في ملفٍّ بنفس الاسم كالعادة وأخذ يتطلَّع إلى تفاصيلها في اهتمامٍ بينما الرجل يُكمل حديثَه ...

***

ما سيجدهُ (وايت) هو سبب وجودي هُنا اليوم، أو إن شِئنا الدقة، ما لن يجدَه هو السبب الأوحد ...

فأول ما سيُقابله فور نزوله مع جنوده وأفراد سفينته هو آثار على رمال الشاطئ، مع بضع ألواح خشبية مُتراصَّة على هيئة حائط حماية حول مكان المُعسكر حيث أقف الآن، وجميع البيوت والخيام داخل المُعسكر قد تمَّ حلُّها ونزعُها من أماكنها، وكل ما كان ذا قيمةٍ غير موجود في مكانه، حتَّى المخزون الذي كان (وايت) قد خبَّأه في زيارته الأولى لن يجِدَه مكان ما حفر له، بالإضافة لغياب قوارب النجاة من أماكنها ... خواء تام ... أكثر من 110 أشخاص لن يكُون لهُم أيُّ أثر نهائيًا!

لن يشعُر الساذج بأي ريبة، بل سيظُنُّ أنَّ أفراد مُستعمرته القديمة قد انتقلوا لمكانٍ آخر فقط، خاصةً أن هذا كان الاتفاق المُسبَّق بالفعل، الانتقال لمكانٍ أكثر مُلائمةً للمعيشة حتَّى يعود هو إليهم من مُهمته ...

فقط مع الوقت ستتصاعد رائحة الشك ...

وعندها ستُفرض عدّة سيناريوهات؛ أكثرها شيوعًا وعقلانيةً هو هجوم القبائل المُجاورة في الوقت الذي عادت فيه القوات المُسلَّحة طلبًا للمؤَن من (إنجلترا)، أي أنَّ المُتبقي هم نساء وأطفال في الغالب مع القليل من الرجال الذين لن يصمدوا بأي حالٍ من الأحوال، وعندها لن يتركوا أحدًا على قيد الحياة، إمّا مقتولًا ومَدفونًا في مكانٍ ما، أو تحت نَير السبي ... هذا غير الرأي الذي سيبدو ضحلًا في قول البعض أن أفراد المُستعمَرة قد تفرّقوا في الأرض واندمجوا مع السكان الأصليين وتزوّجوا منهم، وبالطبع هذا قد يبدو مُقنعًا بعض الشيء إذا ما كانت مُدّة الغياب بعشرات السنين وليس بالأقل من ثلاث .. ولن نذكُر رأي هجوم الإسبان ودخولهم من (فلوريدا)، لن يترُك الإسبان فرصةً كهذه لاستعراض قواهم وبثّ الرهبة في ضحاياهم.

ما سيحدث في اللحظات القادمة سيظلُّ محفورًا في أذهان الأجيال حتّى لحظة تسجيلي هذه الأحداث ...

تحت اسم (المُستعمرة المفقودة) ...

***

صدر صوت خربشةٍ خافت من الأسطوانة مع لحظاتٍ من الصمت، ثم عاد الصوت وقد قفز لمُنتصَف عبارةٍ جديدة مُشيرًا إلى عطب في التسجيل ...

***

... بعثات أُخرى إلى نفس البُقعة لإقامة مُستعمراتٍ على غرار

المُستعمرة المفقودة، وستستقر إحداها هنا بدايةً من العام 1607 ولمدَّة سبع سنوات، وستكون هذه المُستعمرة بالذَّات بؤرة اهتمامٍ ومركز تجمُّع عدَّة مُستعمرات أصغر ليُشكِّلوا النواة الأولى لمدينة (جيمستاون) التي بدَورها ستجذب الانتباه وسيُعاني ساكنوها الصعاب في البداية ولكن مع الوقت ستبدأ الحياة في السَّير على الوتيرة الطبيعية وسينضمُّ إليها العديد من المستوطنين ويزداد التعدادُ حتّى يصل للحد الكافي لتكوين الولاية التي يعرفها الجميع ...

ولاية (فيرجينيا) ...

أي أن ولاية (فيرجينيا) مَبنية على أطلال مُستعمرة مفقودة لا يُعرَف لها سبيل حتَّى لحظة سماعك لهذا التسجيل ...

وسيظل اللُّغز مدفونًا ها هُنا في مكانٍ سيختفي تحت طبقات التراب وخلف غاباتٍ من الأشجار التي ستُساهم في إخفاء كلِّ أثرٍ لِما حدث للمُستعمرة المفقودة، لدرجة أن العديد من الحملات ستأتي تباعًا مُحمَّلة بالعدَّة والعتاد والكثير من الفضول والإصرار لمعرفة مصير المُستوطنين، وجميعها سيبوءُ بالفشَل الذريع ...

أولى هذه الحملات ستكون بعد عشرات السنوات من الآن، تحديدًا في العام 1653 على يدِ تاجرٍ وهاوي اقتناء تُحَف ونوادر يُدعى (جون فرار)، سيأتي مع أصدقائِه بِنيَّة الحفر، ولمُفاجأتهم سيعثرون على آثارٍ تعود لمُستعمراتٍ تلي المُستعمرة إيَّاها في العُمر ولن يجدوا أي أثرٍ للمُستعمرة المنكوبة ... وأذكر أيضًا إحدى الحملات من العام

1895 سيستقرُّ أفرادها في نفس المكان وأيضًا سيكون الفشل حليفَهم ...

لا داعي لذِكر أنه طوال هذه الفترة وعلم الآثار كان لا يزال يحبو، حتَّى دخولنا القرن العشرين ومع أربعينياته سيتغيَّر الأمر مع الطفرة الأثرية العلمية، وسيبدأ الحفر الأثري المُحترِف، وعندها سيتمكّن الأثريون من العثور على أجزاءٍ من المعمل العلمي إيَّاه الذي أقامه (هاريوت)، ولكن سيظل مكان المُستعمرة الحقيقي مجهولًا، حتّى في عام 1982 عندما يتمكَّن أحدهم من العثور على بقايا بئرٍ قُرب هذا الشاطئ حيثُ أقف الآن تعود لهذه الفترة بالتحديد سيُعتقَد أنها من حفْر أفراد هذه المُستعمرة ولكن دون تأكيد، للأسف ...

***

تعالى صوت التقطيع المُستفزّ مرّةً أُخرى من الأسطوانة قبل أن يُكمل الصوت وقد قفز ثوانيَ أُخرى.

***

... وعندها سأُحاول أن أنضمَّ إليهم هُنا علِّي أصِل لشيءٍ ما، إن لم تخنِّي ذاكرتي فقد استطاع بعض العُلماء العثور على أشكالٍ مُستطيلة مدفونة تحت الأرض في عام 2000 يُعتقد أنها ستكون من أجزاء المعمل العلمي، ربَّما من هناك سأصل لأي أثرٍ يُشبِع فضولي ويحل اللغز، وإنْ لم أستطع فرُبّما أجد شيئًا ما في بُقعةٍ أُخرى قريبة من هُنا، أتذكّر قراءتي لورقةٍ بحثية تُفيد عثور أحد الغواصين على رأس فأسٍ مغمورًا تحت الماء في 2002، لا أستطيع أن أُنكر

احتمالية تغيير مكان المُستعمرة مع تغيير حركة الأرض وتغيير منسوب المياه على مدار الـ 400 التالية، بدليل أنَّ أكثر من 180 مترًا كاملةً ستكون تحت مُستوى المياه في زمني من حيثُ جئت ...

المُهم ...

***

تعالى صوت خطواتٍ مُتعثِّرة على حشائش وأغصان جافة تتكسَّر تحت ثقلها، قبل أن يُتابع الصوت وهو يلهث ...

***

هـ ... هذا ... هو ...آ ... كل ما ... أتذكّره حالـ ... حاليًّا ... وهذا ... هو تاريخ آخر 600 عامٍ من تاريخ ... المنطقة ... فقط يتبقّى أن تعرف سبب احتفاظي بالرسمة المُرفقة التي تُمثِّل نصف اللغز ...

ثم توقَّفت الأصوات وتعالى صوته وهو يلتقِط أنفاسَه بصعوبة...

***

وهُنا رفع (يوسف) الرسمة التي كان لا يزال يُمسكها في يده ...



كانت لشجرةٍ عتيقة تم شحذ جانبها وحُفر في قلبها كلمة بحروف مهزوزة، كلمة Croatoan التي لم يفهم (يوسف) ماذا تعني ولا إلى ماذا تُشير، في نفس اللحظة التي تابع فيها الرجل في التسجيل كلامه ...

***

سيجد أحد أفراد الحملة هذه الكلمة محفورةً على الشجرة التي كنتُ أقف بجانبها الآن ولن يعرف أحد ما المقصود بها ...

أحدهم سيقول إنّها اسم قبيلة بدائية قريبة من هُنا، إحدى قبائل السكّان الأصليين ممّن يُكنّون الضغينة نحو المُستعمِر الأبيض وأن هذا ربما سيكونُ دليلًا أنهم قد هاجموا المُستعمَرة وأن مَن كتبها هو أحد أفراد المُستعمَرة أنفسهم، كان قد استطاع الهرب، أو أحد أفراد القبيلة لتكون بمثابة توقيع قاتلٍ مُتسلسل في مسرح جريمته، ولكن لم يخطر ببالِهم أنه لِمَ قد يتكبّد أحد الناجين عناء الحفر على

شجرةٍ بينما كان باستطاعته كتابتها في مخطوطةٍ ما مِن التي كانوا يحملونها معهم؟ وحتّى لو كان أحد أفراد القبيلة هو مَن قام بها، فأنَّى له أن يعرف الإنجليزية!؟

هذا بجانب أن الكلمة في منطقة مُختفية غير واضحة فلن تقوم مقام إمضاء المُنتصِر ولا رسالة استغاثة ...

***

في نفس اللحظة تعالت أصوات هُتافٍ وجلبة من على بُعدٍ في حين تابع الرجل في لهفة ...

***

والآن، أكتفي بهذا القدْر فقد أتى (چون) وجنوده بعد أن رسَث سفينتُهم، كما قُلت سأنضمُّ إليهم لعلَّ وعسى أن أصل إلى شيءٍ ما وأحلَّ لغزًا من مئات السنين، إذا وجدت تأكيدًا ستعرف بالتأكيد بتسجيلٍ آخَر عندها ...

إلى اللقاء مؤقتًا ...

جزيرة (روانوك) الثامن عشر من الشهر الثامن من العام 1590...

انتهى ...

***

عمَّ الصمت أرجاء الغُرفة ما عدا صوت هدير الجرامافون الذي صار مُعتادًا الآن بعد 3 أسطوانات مُتتاليات بـ 3 حكايات تنوَّعت بين

الغريب والمُخيف والمُقبض، وكان (يوسف) لا يزال مُمسكًا الورقة في يدِه وقد امتلأ بمزيجٍ من الحيرة والإثارة لِما سمِعه الآن، وجال في باله عشرات الاحتمالات والتخيُّلات لما قد حدث في جزيرة (روانوك) منذُ حوالي الستمائة عام.

وهُنا أدرك الفخَّ الذي ينسحِب إليه تدريجيًّا بعد أن اختبر الجانب السيئ لهذه التسجيلات.

ألا وهو الفضول القاتل ...

تنهَّد تنهيدةً طويلة ثم قام ليُعيد الورقة مكانها في الملف قبل أن يُلقي نظرة على صندوق التسجيلات الذي صار له وزنٌ نفسيٌّ الآن، ومرَّ بأنامِله مرّة أُخرى على الأسطوانات التي تخطَّى عددها عشر أسطوانات بقليل، خمَّن (يوسف) أن كل واحدة منهن تحوي لغزًا كلُغز (روانوك)، وهذا يعني جلسات طويلة مُثيرة كهذه الجلسة بجانب الجرامافون ...

تُرى هل يسمح الوقت بسرقة حكايةٍ أُخرى؟!

ألقى نظرة على ساعته فوجدَها قاربت على الثالثة والنصف، ربَّما يكون هُناك وقت لواحدةٍ أخيرة، كان يشعُر أنَّه كالطفل الصغير الذي تعلَّق بلُعبةٍ جديدة، لعبة لا يملُك مثلها غيره، وهي له وحده ...

قرَّر أن يسحب أسطوانة أُخرى ولكن هذه المرة أرادها عشوائية، فمدَّ يدَه إلى الصندوق وسحب واحدةً من المُنتصف وقرأ عنوانها الذي لمْ يكشِف الكثير، فمطَّ شفتَيه بتعبيرٍ مُحايد ولكنه لم يتوانَ عن اختياره، فثبَّتها على المحور وأغلق عليها بذراع الإبرة ...

وقبل أن يُدير الذراع عمَد إلى البحث عن الملف الخاص بالأسطوانة فسحبه من الصندوق الخاص به وأخرج منه عدة صور أبيض وأسود، واحدة يظهر فيها رجلٌ يرتدي زيّ المُغامرين المُتعارف عليه في الأفلام من قُبّعة مُستديرة وبنطلون ساقَاه مَحشورتان في حذاءٍ طويل العُنق وقميصٍ فاتح اللون ويقف واضعًا يدَيه في جانبَيه على جِذع شجرة يطفو رأسيًا على سطح الماء، والأُخرى لجذع شجرة – ربّما كان نفس الجذع – يطفو وحيدًا بنفس الشكل الرأسي ...

لم يفهم المَغزى من الصورتَين ولا مَن يكون هذا الشخص، ولكنه سيعرف الآن، فأمسك ذراع الجرامافون وأدارها لثوانٍ قبل أن يتركها ليرتفع صوت الرجل وهو يحكي بصوته الذي صار مألوفًا ومُحبّبًا الآنَ أكثر من أصواتٍ أُخرى كثيرة ...

***

رجل البُحيرة العجوز
1896

أُسجّل هذه الرحلة وأنا أحمدُ الله أنِّي استطعتُ الهرب آخر مرّة، كالعادة لا أدري أين سيقع هذا التسجيل، ولذلك لن أحرق أيّ تفاصيل، سأدَعُها للمُفاجأة.

هذه المرّة أعرف أنِّي في الولايات المُتّحدة الأمريكية، ولاية (أوريجون) بالتحديد، وأقف أمام بُحيرة ما، في مكانٍ ناءٍ بعيدٍ عن البشر، أرى لافتةً قريبة منِّي تقرأ Crater Lake، يبدو المكان هُنا رائعًا والطبيعة ساحرة، بعيدة عن يد الإنسان المُخرِّب.

على بُعدٍ أرى رجلًا حليقًا أصلع الرأس، يجلس القُرفصاء قُرب شاطئ البُحيرة ويبدو وكأنّه يُدوّن شيئًا ما في مُفكّرة صغيرة يحملها في يده، ولا أدري لِمَ، ولكن يبدو شكله مألوفًا وإن لم أستطع تذكُّر أين رأيت أو قرأت قصّته، لا بُد وأنِّي أعرف، أنا أعرف ما وراء كل رحلة، فجميع رحلاتي قائمة على قراءاتي من البداية، كُنتُ قد نوّهتُ إلى ذلك في الأسطوانة صفر ...

هي فقط مسألة وقت ...

أراهُ ينظُر في ثباتٍ نحو سطح البُحيرة، أتتبّع نظرَه فأجده يتطلّع في اهتمامٍ إلى جذع شجرة يطفو بشكلٍ رأسي وإن اختفي أغلبه تحت سطح المياه، لا يظهر منه سوى جُزء بسيط و... وهذا المشهد بالذّات مألوف للغاية ...

وهُنا بدأت خلايا مُخِّي الرمادية تنبضُ وتَسري فيها كهرباء خفيفة تُدغدغها وتُنعشها وعليها تنساب بعض المعلومات الخفيفة، ولمعت عيناي بلمعةِ المعرفة، الآن أتذكَّر هذه القصّة الغريبة ...

هذا هو (جوزيف إي ديللر) ...

وهو هُنا لنفس السبب الذي أنا هُنا من أجله، هذا الجذع ...

أو كما يُطلِق عليه أهل المنطقة Old Man of The Lake ...

أو (رجل البُحيرة العجوز) ...

وهذه اللحظة هي أول لحظة مُسجَّلة في التاريخ لظهور هذا الجذع الغريب، وأقول أول مرَّة لأنّه سيُحافظ على هذه العادة لأكثر من قرنٍ كامل من الزمان، سيظل يطفو ودائمًا بنفس هذا المنظر الغريب.

هذا الجذع لن يغرق، لن يميل، لن يختفي، فقط سيبهَت لونه ويتحوّل إلى الأبيض من أثر عوامل التعرية والرطوبة وتأثير تفاعُلات المواد الموجودة في المياه، يُقدَّر طوله بحوالي التسعة أمتار يبدو منهم ظاهرًا قُرابة المتر والنصف فقط، وعرضُه من الأعلى يسمح بوقوف شخصٍ بالغٍ عليه، بل إن البعض سيقف عليه بالفعل ليتأكَّد من صلابته وصموده وكونِه لن يغرق مع وزنِهم، وهذا ما تأكَّدوا منه بالفعل.

أرى (جوزيف) لا يزال مُنهمكًا في فحص الجذع وتدوين مُلاحظاته، ولا يدري أنّه بعد سنواتٍ من الآن سيجدون أنواعًا من

الطحالب غير موجودة سوى في قاع البُحيرة، أي على بُعد 120 مترًا، وسيُثير هذا فضول الجميع – بما فيهم أنا – عن كيفية وصول هذا النوع من الطحالب إلى الجذع، هل هذا معناه أنَّه ينزل إلى القاع ثم يعود ليطفو مرّةً أُخرى؟ ولو كان هذا ما يحدث فكيف؟ كيف يعود للطفو بنفس المنظر الثابت؟ ما هي العوامل التي تؤثّر فيه ليكون بهذا الشكل؟ بل وما هي آلية غمره وطفوِه التي يُحافظ بها على تواجُدِه بهذا المنوال؟



***

صمت الرجل لثوانٍ وتعالى في نفس الوقت صوت خطواته على حشائش تنكسِر تحت ثِقل جسمه وهو يلهث ببطء، فرفع (يوسف) الصور مرَّةً أُخرى ليتطلَّع فيها ...



لا بُد أن هذا هو (جوزيف) الذي يتحدَّث عنه الرجل، وهذا هو الجذع ...! هكذا فكَّر لنفسه (يوسف) وهو يرفع الصورة الأُخرى.

مطَّ شفتَيه وهو يُفكر أن هذا يبدو جذعًا مُخيبًا للآمال بحق، لولا ما يحكيه الرجل عنه لم يكُن ليُعِيره أيَّ اهتمام، مُجرّد قطعة شجر طافية و... تعالى صوت الرجل وهو يلهث مُتابعًا ...

***

أنا ... الآن ... أقـ ... أقترب من المشهد قدر ... الإمكان ...

السبب وراء الاهتمام العارم بهذا الجذع هو أنَّه – وبكل غرابة – يتحرّك ...

فمكانه غير ثابتٍ على الإطلاق، بل إن (جوزيف) وصل لمكانه الحالي بمحض الصُّدفة، وبعد سنتَين من الآن سيكون على بُعد نصف كيلومتر من هُنا، وبنفس المنظر تمامًا، ومع الوقت سيُدرك الناس عند مُراقبتِهِ أنّه قد يتحرّك مسافة الستةِ كيلومترات في اليوم.

أي أنَّه لا يتآكل ... لا يذوب ... لا يغرق ... ويتحرَّك ...

غريب!

والآن وبعد أن تذكَّرت كل المعلومات المُسجَّلة عنه، أتذكّر محاولات الناس لتفسير غرابة هذا الجذع المُتحرّك ومن أيِّ شجرة جاء، وأقرب تفسيرٍ لوجوده هو أنه كان محشورًا بين الصخور في القاع لمدةٍ كافية كي يتشرَّب المياه وينتفِخ مثل العوَّامة وعندما تفكّكت الصخور من حوله طفا للسطح، ومن وقتها وهو ضحية الرياح تأتي به وتذهب، تتحكَّم فيه وتُحركه من مكانٍ لآخر ليكون علامةً مُميزة للبُحيرة، أو على الأقل هذا ما يعتقِده البعض ...

ها قد انتهى (جوزيف) من فحصه ويجمع أشياءه وعلى وشك الرحيل، وما لا يعرفه أن فور رحيله سيبدأ الجذع في الحركة مرّةً أُخرى، ليس وكأنّها مقصودة أو أنّه سيفعلها عن عمد، فقط (جوزيف) تعيس الحظ، وأنا سعيدُه.

سأقترب منه أكثر كي أُتابعه عن كثبٍ وأرى إلى أين سيذهب ...

وآخِر شيء قبل أن أُنهي التسجيل ...

هُناك العديد من السُّكان الأصليين في هذه المنطقة، لديهم أساطيرهم الخاصَّة بهذا الجذع، فتجدهم يعتقدون أن حركته مُرتبطة بحالة الجوِّ في المنطقة، وهذا الرأي نابع من وجودهم في المنطقة من مئات السنين ومُلاحظتهم لتحرُّكات الجذع، فنسجوا حوله حكاياتهم الدينية، وممَّا زاد الأمر غرابة أنَّه وبعد عشرات السنين من الآن وتحديدًا في 1988، بعض البحارة من العارفين بأمر الجذع ستنتابُهم المخاوف من ظهوره المُفاجئ من تحت سطح المياه ليثقُب مراكبهم وسفُنهم ويُسبب كوارث لهم في رزقهم، فسيعمدون إلى ربطه بالحبال وسحبه لجُزءٍ بعيد من البُحيرة، بل نحو الجانب الشرقي من بُحيرةٍ قريبة منها، وتوَّ انتهائهم من هذا الأمر، سينقلب الجو تمامًا وستهُبّ عاصفة شديدة على البُحيرة لتَعيث في الدنيا فسادًا ولن تهدأ حتّى ينفكَّ الجذع من فرط قوة الرياح ويعود لمكانه طافيًا لقلب البُحيرة، وعندها سيعُم الهدوء وتنتهي العاصفة، وسط ذهول كلِّ مَن شهد الموقف.

صُدفة ...؟ حكاية خيالية ...؟

هذا ما أنا بصدد استكشافه الآن ...

وها قد بدأ الجذع حركته، وهذا هو مَوعد رحيلي ...

رجل البُحيرة العجوز – ولاية (أوريجون) – إلى اللقاء ...

***

مرّة أخرى نجح ذلك الغريب في رسم علامات الدهشة والانبهار على وجه (يوسف) الذي لم يتخيّل مدى الغرابة التي سمِعها من مجرّد عنوان مُبهم مثل (رجل البُحيرة العجوز)، وبالرغم من أنّها ليست بنفس طول الحكايات الأُخرى إلّا أنّها تركت أسئلة عديدة بلا إجابات لديه.

ما السر وراء هذا الجذع الغريب ...؟

هل هو تجربةٌ ما تقوم بها إحدى الجهات ...؟

هل للقبائل البدائية دخل في الأمر ...؟

ولو لا، فما هو التفسير العلمي الفيزيائي لما يحدُث ...؟

بالتأكيد هناك تفسير ما ...

وهنا سحب (يوسف) ورقةً وقلمًا من جَيب سُترته، ودوَّن فيها أسماء الأسطوانات ورءوس المواضيع التي سردها الرجل فيها، وقد قرَّر أنّه سيبحث أكثر عنهم عند عودته للمنزل، في نفس اللحظة التي رنّ فيها هاتفه، فأجفل للحظةٍ ثم سحبَه من جَيبه وأجاب بسُرعة:

-نعم يا (إيمي)، انتهيت، أعلَم، أعلم ... انشغلتُ قليلًا في أمرٍ ما غريبٍ جدًّا.

كان يتكلّم وهو يُلملِم الأسطوانات ويُعيدها في الصندوق مرّةً أُخرى بعد أن فرّق بين ما استمع إليه وما لم يستمِع إليه بعدُ بقطعةٍ من الورق المقوى، ثم تأكّد أن جميع الوثائق في مكانها وأعاد الكُرسيّ مكانه وهو يُتابع:

-لا، ليس الآن، سأحكي لكِ كل شيءٍ عند عودتي، 5 دقائق بالضبط وسأكون في الطريق ... حسنًا ... أها ... 2 كيلو ...؟ مفروم؟ ... حاضر ... إلى اللقاء.

كان قد أنهى ما يفعله وألقى نظرةً أخيرة مُطمئنة على المكان وهو يُمنِّي نفسه بجلسةٍ أُخرى غدًا، ربما أطول ...

ثم أطفأ النور وأغلق الباب وراءه ومضى في طريقه لشراء اللحم المفروم قبل عودته للمنزل حيث صينية الرُّقاق اللذيذة التي اشتهرت بها (إيمي) بين العائلتَين.

فاصل لا بُدَّ مِنه

انتهت (إيمان) من تنظيف المطبخ وخرجت بكوبٍ من الشاي لـ (يوسف) وكوب من عصير التوت لها مُتّجهةً نحو غُرفة المكتب حيث يجلس (يوسف) من بعد الغداء مُنهمكًا في تصفُّح الإنترنت على اللابتوب الخاص به، كان قد حكى لها كل شيءٍ وهما على مائدة الغداء، ووجدت هي الأمرَ غريبًا عليها، فظلَّت تسأله الكثير من الأسئلة ولكن لم يكُن لديه جميع الإجابات، ولهذا عزم على البحث أكثر باستخدام الكلمات التي دوَّنها وهو هناك.

وصلت إليه ولم يشعُر بها من فرط انشغاله وهو مُنكبٌّ على لوحة المفاتيح يكتب قليلًا ويقرأ أكثر، يحفظ العديد من الصفحات في المُفضَّلة ويطبع البعض الآخر ويُجمِّعهم في ملفٍّ خاصٍّ به، يبدو أنّ الأمر صار أكبر من مُجرّد منزل للتجديد.

أصبح منزلًا له كيان وشخصية وتاريخ، بل عدَّة تواريخ.

انتبه (يوسف) لوجودها بعد أن وضعت كوب الشاي أمامه فالتفت لها في لهفةٍ وهو يرفع ورقة مطبوعة أمام عينَيها قائلًا:

– انظري، ذلك الرجل لم يكذِب قط!

– ماذا تعني ...؟

– أعني أنَّ كل ما في الأسطوانات له أصل تاريخي!

وضعت كوب العصير على المكتب هي الأُخرى وتناولت الورقة منه لتُلقي نظرةً مُتفحِّصة على ما فيها.

***

لقاء مع صاحب (القرون)

https://www.britannica.com/biography/Nostradamus

https://www.history.com/topics/paranormal/nostradamus

Prophecies of Nostradamus - Nostradamus

Nostradamus: The Complete Prophecies for the Future - Mario Reading

تنبؤات نوستراداموس - مكتبة مدبولي

جانب نجوم قلعة (هوسكا)

https://www.tresbohemes.com/2017/04/houska-castle/

https://www.praguemorning.cz/the-frightening-legend-of-houska-castle/

https://www.mcgeesghosttours.com/gate-to-hell-at-houska-castle/

https://castles.today/slott/tjeckien/houska/

legends/

The Deeps Beneath Castle Houska - Erik Lange

(روانوك) وسر المستعمرة المفقودة

https://www.history.com/news/what-happened-to-the-lost-colony-of-roanoke

https://www.britannica.com/story/the-lost-colony-of-roanoke

https://encyclopediavirginia.org/entries/roanoke-colonies-the/

The Mystery of the Lost Colony - Carole Marsh

Roanoke: Solving the Mystery of the Lost Colony - Lee Miller

رجل البُحيرة العجوز

https://www.npca.org/articles/1016-the-old-man-of-the-lake

https://www.nps.gov/crla/learn/nature/theoldman.htm

https://www.treehugger.com/dive-into-eternal-mystery-old-man-lake-4868043

***

رفعت عينَيها إليه مُتسائلة:

– ما هذا بالضبط ...؟

– هذه هي مصادر كل تسجيل، لقد بحثتُ وراء كل موضوع بنفسي، كل أسطوانة هي حكاية لحادثٍ ما موثَّق في التاريخ وهُناك مصادر عديدة لكل واحدةٍ منها، وما في يدِك بعضٌ منها.

همهمت (إيمان) مُتفهِّمة وهي تُناوله الورقة مرّةً أُخرى ليضعها في الملفِّ أمامه وتتناول كوب العصير مرّةً أُخرى وهي تغمز بعينِها قائلةً:

– لقد وعدتني أن أُشاركك في المرة القادمة ها ...

– غدًا ...! نذهب معًا ...!

تهلَّلت أساريرها وصفَّقت كالأطفال بكفِّ يدها برفقٍ على الأُخرى المُمسكة بالكوب كي لا تسكب مُحتوياته، قبل أن تتركه ليُكمل أبحاثه وتمضي لإنهاء أعمال المنزل وقد نسِيَت بالفعل ما اتفقا عليه منذُ ثوانٍ.

***

دقَّت عقارب الساعة التاسعة صباحًا عندما فتح (يوسف) باب غُرفة الأرشيف ودلف في لهفةٍ واضحة تتبَعُه (إيمان) التي دارت بعينَيها في أرجاء المكان في فضولٍ وقد انتعشت حاسَّة الأُنثى بداخلها وهي تُعلِّق في استنكار:

– المكان بحاجةٍ لجيش تنظيف يا (يوسف)، كيف يتأتّى لك الجلوس هُنا في هذا المنظر البشع ...؟

هزَّ كتفَيه وأجاب وهو يعدُّ الكرسي لها، ويسحب كرسيًا آخرَ ويجهّزه لنفسه:

– لأنني يا عزيزتي – وبكل بساطة – لن أعيش هُنا، فقط جذب الصندوق اهتمامي فأعددت مكانًا مُناسبًا لي لأني لن أحتاج أكثر من هذا.

انتهى من كلامه وسحب الصندوق أقرب وهو ينزع غطاءه ويُشير إليه بحركةٍ مسرحية كي تقترب منه (إيمان) وتتطلّع إلى الأسطوانات بداخله، قبل أن تمدَّ يدَها وتبدأ في فرزها سريعًا وهي تقرأ العناوين وقد ترك لها (يوسف) المجال لتختار ما يتراءى لها ...

أخذت تُتمتِم بالعناوين ببُطءٍ وهي تُزيح أسطوانةً تلو الأُخرى، حتّى توقّفت عند واحدة جذب عنوانها انتباهها فناولتها لـ (يوسف) الذي أخذها منها وتطلّع إلى العنوان في فضول، ثم سحبها من الغلاف ووضعها في المكان المُخصّص لها على المحور، ثم ثبّت الإبرة عليها برفق، وما إن انتهى من تثبيتها حتّى فتح صندوق المُستندات وأخرج الملفّ الذي يحمل نفس الاسم وناوله لـ (إيمان)، قبل أن يُدير ذراع الجرامافون لثوانٍ بينما اتّخذت هي مجلسها على الكُرسي الذي أعدَّه لها (يوسف) ووضعت الملفَّ على فخذَيها مُستندةً عليه، بينما كان هو قد انتهى من لفِّ الذراع في نفس الوقت الذي ارتفع فيه صوت الرجل ...

وبدأ يحكي حكاياته الخالدة ...

(أبيجايل ويليامز)
1692

تسرّبت هذه المرة رائحة نباتية عطِنة إلى أنفي الذي تقلّص في اشمئزازٍ ففتحت عينيّ بسُرعة وأنا أتلفَّت حولي لتأمين مكاني، لا أودُّ أن ينتهي بي الحال مثل المرة السابقة وسط ساحة قتال تحت سماءٍ مليئة بالسهام المُشتعِلة والجُثث الآسيوية الحاملة لعدوى الطاعون.

لا بُد أنَّك قد اعتدتَ هذه الأمور الآن.

المُهم، أنا الآن مُلقًى أسفل شجرة ضخمة على مشارف ما تبدو وكأنّها مزرعةٌ ما في ريف ما ستُصبح (الولايات المُتحدة الأمريكية) في خلال بضع سنواتٍ من الآن ...

العام هو 1692 في بلدةٍ ما، أعرف أنَّها علامة مُميزة في التاريخ وإن كُنت لا أتذكَّر اسمَها الآن، فأرنو بنظري للمنزل القديم الذي يتصاعد دُخان خفيف من مدفأته على بُعد أمتارٍ من الشجرة وأنا أُحاول أن أتذكَّر أكثر.

أرى اللافتة العريضة من مكاني واضحة، تقرأ منزل القس (صامويل باريس).

هذا أعرفه، بريطاني الأصل، التحقَ بجامعة (هارفارد) ولكنَّه لم يُكمِل فيها بسبب وفاة والده (توماس) فترك دراسته وتولَّى مسئولية العناية بمزرعة السُّكَّر ميراثه من أبيه في (باربادوس) والتي استمرَّ فيها حتّى العام 1680 عندما ضرب المكان إعصار عنيف دمّر أغلب

مُمتلكاته هُناك فتركها كما هي وعاد إلى مدينة (بوسطن)، والغريب أنّي أشعرُ بغمامة تُغطّي ذكرياتي عن هذه المعلومة، هُناك شيءٌ ما مُهمٌّ بخصوص هذه النقطة لا أستطيع أن أتذكّره.

اعتدلتُ قليلًا، وأنا أنظرُ للأعلى، نحو الشجرة حيثُ غُصن ضخم يصلُح للارتقاء، فأتسلّقها بأقصى سُرعة تسمح بها لياقتي وقد بدأ التشويش على مُخّي يختفي رويدًا رويدًا، فأنظرُ من مكاني عبر نافذة المنزل السُّفلى، أرى فتاةً صغيرة رُبّما لم تُكمِل التسع سنوات بعدُ، أعرف أن هذه هي (بيتي) أو (إليزابيث) ابنة القس، ولكن ...

مهلًا، ها هي ...

أراها تتهادى من الدور العلوي على السُّلمِ الداخلي، وحتّى من مكاني ها هُنا أرى نظراتها الفجّة وملامحها القاسية تبدو جليّةً على الرغم من سنوات عُمرها الإحدى عشرة، تخيّل ملامح طفلة على شخصية عجوزٍ شمطاء ستفهم ما أرى، وما إن رأيتها حتّى أُرتِجَ عليّ وتدفّق سيل المعلومات يغزو عقلي ...

والآن فقط أعرف أين أنا ومَن هذه ...

هذه هي (أبيجايل ويليامز) ...!

وجودي هُنا الآن صار معروفَ السبب ...

أنا هُنا في هذه اللحظة بالذّات لأشهد بداية أصعب وأعنف فترة في تاريخ (أوروبا) وواحدة من أكثرها ظُلمةً، فدعني أوثّق ما سيحدُث على مدار الدقائق والساعات والسنين القادمة سريعًا،

قبل ظهور الأعراض على (آبي) كما يُطلِقون عليها ابنة عمّ (بيتي)، وكلتاهما مُقيمتان في منزل القس (صامويل) بشكلٍ دائم وسط الخدم.

لسببٍ ما غير معروف ستبدأ الفتاتان في إظهار أعراضٍ غريبة هي مزيج من أعراض الصرع مع أعراض أُخرى غير مُتوافقة معها ... السائد فيهم هو الرجفة غير المُبرّرة، والحُمّى الغريبة التي يُصاحبها هذيان وخرَف، ثم حركات جسدية لا إرادية نتيجة ردود أفعال غريبة وأصوات أغرب ستصدُر من حنجرتيهما، وزوايا ستتحرَّك فيها مفاصلهما ستُعد مُستحيلةً على البشر، قبل أن تنطلقا في العدْوِ في هيستريا وصُراخٍ وعويل بدون سبب واضح ناشرتَينِ الرُّعب في كل مكان.

وسيستمر الوضع على هذا السوء فترة، ولن يمُرَّ الأمرُ بسيطًا على أهل البلدة الصغيرة ذوي العقول البسيطة الخائفة دومًا، خاصةً بعد انتشار نفس الأعراض وسط باقي فتيات البلدة، أمّا بالنسبة للفتاتَين فستزداد النوبات سوءًا، وستقعان في الشوارع فجأةً، لتُثيرا الفزع أكثر وأكثر في قلوب الناس، حتَّى يصل الحال لنُقطةٍ لا بد فيها من تدخُّل طبّي بعد سيادة القلق الأجواء.

وهُنا سيأتي دور المُعالِج (ويليام جريجز) الذي سيفشل فشلًا ذريعًا في استنباط سبب الأعراض، وسينتهي به الحال لعرض التفسير الأكثر منطقيةً من وجهةِ نظره، ألا وهو أن الفتاتَين ليستا مريضتَين، وأن ما يحدُث له تفسيرٌ آخر بعيدٌ عن الطب.

وهو أن الفتاتَين مسحورتان.

***

تلاقت عينا (إيمان) في وجوم مع عينَي (يوسف) الذي ارتسمت ابتسامةٌ خبيثة على رُكن فمه وهو يُراقب ملامح عدم الراحة التي بدأت في الارتسام على وجهِها، فهو يعرف قلقَها من مثل هذه الأمور، ويُدرك جيدًا أنَّه على الرغم من شخصيتها القوية إلّا أنَّها لا زالت أُنثى، أي مزروع في حمضها النووي الخَوف من السِّحر والأعمال وهذه الأجواء المُخيفة منذُ الصِّغر، خاصةً بوجود تاريخٍ حافل في أُسرتها كانت قد شاركَتْه معه في بداية زواجهما.

فرأف لحالِها ورفع ذراع الجرامافون عن الأسطوانة لينقطِع صوت الرجل عن الحديث، وهو يلتفت إليها ليسألها وقد اتَّسعت ابتسامتُه الخبيثة على شفتَيه:

- هل نكتفي بهذا القدر ...؟ أراكِ قد توتَّرتِ.

- لا لم أتوتر، هذا كلُّه هُراء. امممم، مُسلِّي ... ولكن هُراء.

- واضح.

استفزَّتها لهجتُه الساخرة فزمجرت ولكمَتْه برفقٍ في عضدِه قبل أن تُعيد ذراع الجرامافون مكانها على الأسطوانة وتُدير الأُخرى وتعود مكانها في كُرسيها عاقدةً حاجبَيها في غضبٍ طفولي وهي تُتمتِم، بغيظٍ، بشيءٍ ما غير مفهوم اختفى وسط صوت الرجل وهو يُتابع بنفس اللهجة التقريرية.

***

بالطبع كان وقع هذا الكلام على العامة كالصاعقة، وخاصةً كونه قد صدَر من رجل، المُفترض أنّه رجل عِلمٍ مثل (جريجز) ...

بِناءً على ما سيتبَع، ستبدأ أحداث فترةٍ من أظلمِ فترات العصور الوسطى، خاصةً في زمنٍ مُتعصِّبٍ ذي حساسيةٍ ضد أي فعلٍ غير مألوف أو غير مُتماشٍ مع تعاليم الكنيسة، لدرجة أنَّه في هذه الفترة بالتحديد وحتَّى العام 1775 ستتمُّ مُحاكمة أكثر من 100 ألف شخصٍ بتُهمة السحر والهرطقة منهم حوالي النصف سيُحكَم عليهم بالموت مع اختلاف الطريقة.

وهذه المذابح ستنطلق شرارتها من تحت هذا السقف.

نعم، الآن فقط أتذكَّر جميع التفاصيل، أنا هُنا لحضور مولد المُحاكمات التي ستُسمَّى على اسم البلدة.

مُحاكمات مدينة (سالم).

وتلك النُّقطة التي كانت تؤرِّق تفكيري، عند عودة القس (صامويل) من (باربادوس) لم يكُن وحده، كان معه تلك المرأة السمراء البشرة التي ترتدي زيَّ الخادمة.

(تيتوبا) ...

أحمَدُ الله أنَّ خصائص رحلاتي تُمكِّنني من تذكُّر جميع ما أقرأ وإلّا كان من المُستحيل تذكُّر هذه الأسماء والأماكن والتواريخ.

المُهم، أن (تيتوبا) كانت فتاةً كولومبية من قبائل الـ (كالينا)

الأصلية، إحدى قبائل الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، لا معلومات واضحة عن حياتها قبل أن تظهر في قصّتنا سوى أنَّها انتهى بها المطاف في (بربادوس) حيثُ بيعت كعبدٍ للقس (صامويل باريس) الذي عاد بها من هُناك لتُصبح خادمةً في منزله في (بوسطن) وراعية للبنتَين الصغيرتَين، وبعد تفاقُم الأحداث ستُشير جميع أصابع الاتهام نحو (تيتوبا)، سيُقال إنّه عند ظهور الأعراض على الفتاتَين وفشل الطُّرق الطبية التقليدية، ستقترح هي أكلةً ما خاصّة بقبيلتِها الأمريكية الأصلية، أكلة لن تُفصح عن مكوّناتها في البداية، ولكنَّها ستدَّعي أنّ بها الشفاء من تلك الأعراض الغريبة.

سيصل الخبر إلى القس (صامويل باريس) الذي سيشتاط غضبًا وسيأمر بإخضاع (تيتوبا) للاستجواب فقط لتُقرَّ بـ ... ائع... وأ ... الرهيـ ... دقهـ ... لـ ...

***

كان (يوسف) قد اعتاد انقطاع الأفكار السَّخيف هذا، فقام مُسرعًا من مكانه أمام عينَي (إيمان) المُتسائلتَين ليُوقف دوران الأسطوانة ويُخرجها ليُنظّفها وينفض عنها أي أتربةٍ قد تكون عالقة بها، ويتأكَّد من حالة الإبرة التي كانت تحتمِل بضع دوراتٍ أُخرى، قبل أن يُعيدها مكانها ويُعيد الأسطوانة ويُدير الذراع ويعود أدراجَه ويتعالى صوت الرجل أوضحَ مُتابعًا مرةً أُخرى.

***

وكان أول ما أقرَّت به (تيتوبا) أن الأكلة التي أعدَّتها للفتاتَين هي

كعكة مكوَّنة من بول كلتَيهما كانت قد أقنعتهما بأخذ بعضٍ منه مع مكوِّناتٍ أُخرى بعضها عُشبي والبعض الآخر مجهول المصدر، وعند تجربة إعطاء قطعةٍ منها لكلبٍ ضالٍّ أصابته نفس الأعراض الغريبة التي أصابتهما، وأخذ يتلوَّى على الأرض.

وبدأت المسرحية المُقبِّضة.

انهال الضرب والتعذيب على (تيتوبا) التي اعترفت بكونِها جُزءًا من مجموعة شعائرية قَبَلية هدفها نبيل في الحفاظ على حياة الأبرياء وتحصينهم بالتعاويذ السحرية والوصفات الغريبة التي تَقيهم شر الأسحار، أي أنّها لا تكنُّ أي أذًى لأي أحد ... وأثناء اعترافاتها ستنهال على مسامع القُضاة أسماء شخصياتٍ بارزة في البلدة ومن بلداتٍ مُجاورة أهمهنَّ بلدة (أنديفور)، وجميعهم سيتم اتِّهامهم بأنهم مُشاركون في هذه المجموعة الشعائرية، وعليها سيُسحَب معها العديد والعديد من الأشخاص بعضهم شخصياتٌ مرموقة، أو أقارب لشخصياتٍ معروفة لدرجة أن العدد سيصل إلى 200 مُتَّهم، منهم 30 ستَثبُت عليهم تُهمة السحر والهرطقة، منهم 19 سينتهي بهم المآل إلى الموت شنقًا، منهم 14 سيدة.

أرى الآن من مكاني هذا (آبي) وقد بدأت حركتُها تُبطِّئ وتتصلَّب قليلًا، وهذا ما لن يُلاحظه أحد إلّا قبل فوات الأوان، وهذه إشارةٌ لي لأن أنتهِي سريعًا من توثيق ما سيحدُث قبل أن تبدأ الأعراض في التفاقُم؛ فأنا أنوي أن أكون من حاضري الواقعة، والآن، كُنتُ أقول:

اعترافات (تيتوبا) ستكون أكثر من كارثية، فعلى سبيل المثال

5 من المُتَّهمين سيكونون من كهنة الكنيسة أنفسهم، 4 سيدات من زوجات الكهنة و3 أحفاد، هل تتخيَّل حجم المُصيبة ...؟

وستستمر (تيتوبا) في الإدلاء باعترافاتٍ أكثر غرابة، فهُنا سيجيء ذِكر الحيوانات الغريبة التي ستدّعي أنّها تتبعُها في كلِّ مكان ... كِلاب سوداء، فئران، غربان وذئاب ... قائمة من الحيوانات بعضها غير مألوف رؤيته في هذه الأنحاء جميعها يقوم بحمايتها أثناء تجوُّلها ... بل إنّ الأمر سيتعدّى مرحلة التصديق في اعترافها بامتلاكها مقشّة تستخدِمها في الطيران الليلي وحضور اجتماعات السحرة.

بالطبع يُمكن للمرء أن يتخيَّل ما يُمكن لأحدٍ أن يعترف به تحت نَير التعذيب الشديد، عذِّبني بأدوات تعذيب العصور الوسطى وسأعترِف أنّي أنا (جاك السفاح) أو أنّي قتلث (كينيدي) أو أنّي كُنت عضوًا في رحلات (أبولو).

المُهم أنه بغضِّ النظر أن التعذيب كان يفوق احتمال أي بشري، وخاصةً لو سيدة، إلّا أن كميّة التفاصيل التي ستُدلي بها والأدوات الغريبة التي سيجدونها في حوزتِها ستُلغي وجود المنطق في تفكير هؤلاء القوم وسيعتقدون في وجود الشيطان وسطهم ... وما سيُساعد على انتشار النار في الهشيم هو شهادة (آبي) و(بيتي) وفتاة ثالثة تُدعى (آن بوتنام) حيث سيتمُّ اتِّهام (تيتوبا) مُباشرةً بأنَّها هي السبب في مرض الفتيات، بالتعاون مع فتاتَين تُدعيان (سارة جوود) و(سارة أوزبورن) شمعتهما ليست بالتحديد ما يُمكن إطلاق كلمة (نظيفة) عليها.

إحداهما يُعرَف عنها في هذه الأرجاء أنَّها تُعامِل الأطفال والمُراهقين بطريقةٍ مُريبة بينما الأخرى لم تحضر أي اجتماعٍ للكنيسة في حياتها، فلم يكُن الأمر بهذه الصعوبة، وما سيُمهِّد الطريق أكثر أمام الجمع هو هذا ...

***

وهُنا ارتفع صوت حفيفٍ وكأنه يبحث عن شيءٍ ما ...

***

هذا الكتاب المُرفَقة صورته مع التسجيل هو سبب رئيسي لكلِّ الفظائع التي ارتُكِبت من اليوم الذي نُشِر فيه، منذ ما يقرُب من القرنين من الزمان، ولسنواتٍ طويلة من الآن، وسيظلُّ كذلك إلى الأبد، وصمةً من ضمن وصماتِ العار في تاريخ البشرية ...



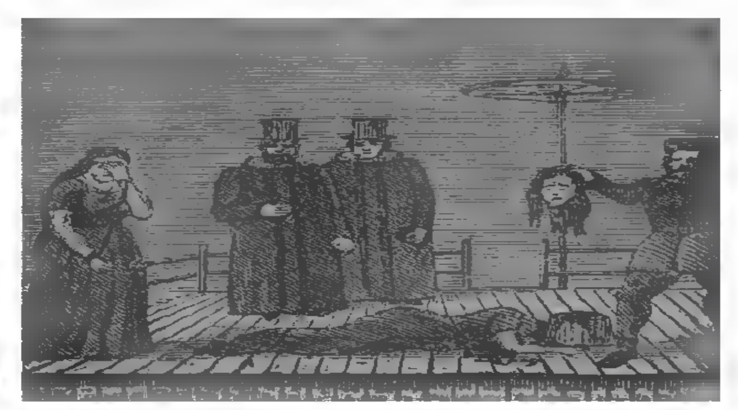


***

أومأ (يوسف) بطرف عينِه للملفِّ الذي كان لا يزال في مكانه على فخذَي (إيمان)، ففتحته بأصابع مُرتجِفة وسحبت ما بداخلِه ببُطءٍ وقد تسبَّبت الحكاية المُقبِّضة في قشعريرة باردة غزت عمودها الفقري بطولِه ...

كانت مُحتوياته عبارة عن عدَّة رسومات بالقلَم الرصاص أغلبها تُصوّر ما يبدو وكأنّها اجتماعات تضُمُّ العديد من الرجال والنساء فيما يُشبه قاعة المُحاكمة وأصابع الاتهام موجَّهة نحو سيداتٍ في أغلب الرسومات.

مع رسمة أو اثنتَين لعمليات تعذيبٍ لأخُريات ...





كانت الصور قاتمةً وصعبةً على (إيمان) أن تتحمَّلها، فتطلَّعت فيهم بسُرعة وقد ارتسمت تعابير الاشمئزاز على ملامحها، ثم ناولتهم لـ (يوسف) الذي لم يُشاركها نفس الاشمئزاز بل تفقَّدهم بتمعُّنٍ اختلط بالكثير من الاستغراب، وبينما هو في انغماسه، رفَعت (إيمان) أمام عينَيه صورة أُخرى لغلاف كتابٍ يبدو قديمًا حمل اسم Malleus Maleficarum باللاتينية وبجانبه مكتوب بالإنجليزية ترجمة الاسم إلى Witches' Hammer مع الترجمة العربية (مطرقة الساحرات) بخطٍّ حديث.



MALLEVS
MALEFICARVM.
MALEFICAS ET EARVM

TOMVS PRIMVS

كان الاثنان يُراجعان الصور والرسومات بينما الرجُل يُتابع حديثَه بنَفَسٍ مُتقطّع ...

***

هذا الكتاب سطرَه رجلُ الدين الكاثوليكي (هينريك كرايمر) الألماني الجنسية في 1486 ونشره بعدها بعامٍ نتيجة لتعلُّقه بمُحاكمةٍ لفتاةٍ تُدعى (هيلينا ... شيءٌ ما) بقيامها بالتعامُل بالسحر واستدعاء الشياطين، وضمَّ بين دفَّتَيه العديد والعديد من الأساليب غير المُعتادة على الكنيسة الكاثوليكية وقتَها للتعرُّف على السحَرَة

والمُهرطقين وشجّع التعذيب بأبشع الوسائل للحصول على الاعترافات من الضحايا والجُناة والمُتّهمين بغضّ النظر عن مدى تورُّطهم من عدمه.

الفكرة الرئيسية من وجهة نظر (هينريك)، لوصول الساحر لمكانتِه، تتوقّف على ثلاثة عناصر رئيسية، أولّها هي نيّة الساحر الشريرة، ثُم مُساعدة الشيطان له، وأخيرًا سماح الربّ لكلٍّ هذا بالحدوث، بينما الكتاب نفسُه مُنقسِم لثلاثة أقسام للعبَث بنفسية المُتلقّي وإقناع عقله الباطن بشرعية المُحتوى وإقناعه به.

فيأتي القسم الأول لإثبات وجود الشياطين والمُتعامِلين معهم بالسِّحر ووجود السحرَة وسط المُجتمعات، ويُعزِّز كلامَه بالاقتباس من الكتاب المُقدَّس، سِفر الخروج، الآية 22 من الإصحاح الثامن عشر (لاَ تَدَعْ سَاحِرَةً تَعِيشُ) وعليها وجب الدفاع عن الدِّين أمام السحرَة والمُهرطِقين من أي شخصٍ مهما كانت مكانته.

القِسم الثاني، وهو الأهم، في وصفِه لطُرق التعرُّف على السحرَة ونشاطاتهم المُختلِفة من العقود المُبرَمة مع الشياطين، المُمارسات الجنسية بين الساحر والشيطان الذي يُساعِده، الطيران والارتفاع عن الأرض، بل وفي بعض الأحيان التحوُّل من شكلٍ لآخر سواء بشري أم حيوان أو طائر فيما يُعرف بالـ Shapeshifting.

أما القسم الثالث والأخير فيتناول طُرق المُحاكمة للسحرة والساحرات وطُرُق التعذيب التي لم تتوقف عند التعذيب بالضغط أي بوضع أحجارٍ وأجسام ثقيلة على صدر المُتّهم(ة) حتّى الاعتراف،

والتعذيب بالإغراق، والحصان الخشبي الذي كانت قاعدتُه حيث يجلِس المُتَّهم مُدبَّبة وعند جلوسه عليها تُربط أثقال في قدمَيه لتسحبَه للأسفل فينتهي الجُزء الحاد المُدبَّب إلى شقِّه نصفَين، من الأسفل، وأشياء أُخرى لن يتَّسِع المجال هُنا لذكرها، ليس لأني لا أُريد أو لا أملك المعلومات الكافية، بل لسببٍ أقوى من هذا كله ...

وهو أنَّ الفتاة على وشك التحوُّل حالًا ...!

***

كان الأمر الآن أكثر ممَّا تستطيع (إيمان) أن تحتمِله وظهر ذلك جليًّا في هزَّةِ ساقِها وحركات أصابعها، في حين كان (يوسف) مُستندًا على فخذَيه وهو يُنصت باهتمامٍ شديد للرجل وهو يستطرد ...

***

المُهم أن هذا الكتاب هو لعنةٌ حقيقية وخاصةً للسيدات، فبسببِه تم الحُكم على مئات - إنْ لم يكُن آلاف – السيدات باختلاف المصادر التاريخية، وذلك لتحقيرهم من مكانة المرأة وسهولة وقوعِها في براثن الشَّرِّ والتحكُّم من الشياطين.

فكان الشكُّ يحوم حول أي فتاةٍ جميلة غير مُتزوِّجة، فبالطبع هي متزوِّجة من شيطان وإلَّا فلِمَ لم تتَّخذ زوجًا (إنسيًا) بعد ... أو عجوز وحيدة في منزلها، بالطبع تُسامِرها الشياطين في لياليها، أو فتاة ما تحمل شامةً غير مألوفة في أي مكانٍ من جسدها، بالتأكيد هي مِن تَعامُلها مع الشياطين، فالشامة هي علامة تملُّكهم للجسد البشري

كمَن يضع شعارَه على مُمتلكاته.

فكانوا في بعض الأحيان يُلقون بالفتاة التي يَشكُّون فيها في النهر، فإن ماتت فهي بريئة، هل يصعُب على ساحرة أن تُنقِذ نفسَها أو يُنقِذها شيطانها ...؟ وإن عاشت ونجت ...؟ يُمكنك التخمين الآن، وكانت شهادة (أبيجايل ويليامز) هي بداية الشرارة، قُرب القرنَين من الجرائم والفظائع في سبيل الدِّين وخاصةً تجاه المرأة.

ومهلًا ...

ها هي الأعراض بدأت في الظهور ...

إنَّها تنتفض وتسقُط على الأرض وتأتي بحركاتٍ لاإرادية غير بشرية بالفعل ...!

يا إلهي ...!

القراءة عن الأمر غير شهادته رأيَ العين تمامًا ...!

من حُسن الحظ أنِّي آتي مُستعدًّا دومًا، فأنا الآن أرتدي ملابس من نفس العصر كي أختلِط بسُكَّان البلدة وأعرف عن قُربٍ كلَّ ما يُمكن معرفته.

هذا التسجيل هو مُطابق لما هو مذكور في كُتب التاريخ.

رُبّما يكون هُناك تسجيل آخَر لما سوف أكتشفه هُنا، لا أدري.

أحمد الله أنِّي رجل في هذا الزمان.

إلى اللقاء قريبًا.

مدينة (سالم) – العام 1692 ...

***

انتهى التسجيل واستمرَّت الأسطوانة في الدوران لثوانٍ قبل أن تتوقَّف، في الوقت الذي ران فيه صمتٌ مُقبِّض على المكان وارتفع صوت ضربات قلب (إيمان) في أُذنَيها من التوتُّر والخوف ومشاعر كثيرة مُختلطة، في حين امتلأ (يوسف) بسيناريوهات مُختلِفة لما قد حدَث بعدما أنهى الرجل تسجيلَه.

لم يتخيَّل مِن اسم التسجيل أنَّه يحتوي كل هذا الرُّعب.

فتاة صغيرة تُشعِل الحرب لعشرات السنين، حرب تُزهِق أرواح عشرات أو مئات من الأبرياء باسم الدِّين، كما هو العادة على مرِّ التاريخ، ياللبشاعة، ثُم أخرج المُذكِّرة الصغيرة من جيبِه ودوَّن اسم الفتاة (أبيجايل) ليستزيد من المعلومات عنها وعن قصَّتها لاحقًا، بينما سألته (إيمان) بصوتٍ مُرتجف وهي تُشير نحو الجرامافون بأصبع أكثر ارتجافًا:

– ما هذا بالضبط ...؟ هل هذا هو ما تقضي وقتَك هُنا في سماعِه ...؟

– امممم، ليس تمامًا، ليس كلُّ التسجيلات بهذه البشاعة الحقيقة.

– هل تعني أنّ هذا هو حظِّي ...؟ لقد توتَّرت بشدّة ويغمُرني الآن شعور عارم بعدَم الراحة.

– يُمكننا الاكتفاء بهذا القذر وسأوصِّلكِ للمنزل وأعود أنا و...

قاطعَتْه بإشارةٍ من كفِّها وهي تُخرج عُلبة عصير من حقيبتِها الصغيرة وتضع الماصّة فيها وهي تقول:

– لا، لا ... أنا بخير، فقط لا أتحمَّل مثل هذه الأشياء، أنت تعلم هذا.

– ثم رشفت من العُلبة، ومطّ هو شفتَيه وهو يُعيد الأسطوانة والملفَّ في مكانهما مرّةً أُخرى ويُرتب مُحتويات الصندوقَين، بينما أطلقت (إيمان) سراح الماصّة من فمها قائلةً:

– لن أختار هذه المرّة، قُم أنت بالواجب ...

ضحك (يوسف) ضحكةً قصيرة لكَسْر التوتُّر وسحب الصندوق نحوَه وهو يتفقّد الأسطوانات في اهتمام، قبل أن يعقد حاجبيه وهو يسحب واحدةً منها وأدارها نحو وجه (إيمان) لتقرأ العنوان، ثم هزَّت كتفَيها أنّها لا تعرف ماذا يعني العنوان، فهزَّ (يوسف) الأسطوانة في يدِه وهو يقول:

– لا أدري، يبدو العنوان مُثيرًا للاهتمام، ربَّما هو تسجيل ديني ...؟

– كما ترى، المُهم ألّا يكون الأمر شبيهًا بموضوع تلك الفتاة...

سحب (يوسف) الأسطوانة من غلافها وأعدَّها للعمل كالمُعتاد قبل أن يتَّخذ مجلسَه وفي يده الملف الخاص بها، وقد بدأ الرجل في الحكي بالفعل ...

***

الكويكب الذي أنقذ (لوط)
3123 ق. م.

لأول مرة مُنذُ أن بدأت رِحلاتي أجدُ نفسي مُتذكرًا لجميع التفاصيل ...

لا أدري ماذا حدث في إعدادات هذه الرحلة ولا نوعية العواقب التي ستتبَع هذا التغيير، ولكنَّها على الأقل جاءت بفائدةٍ في اختصار الوقت ...

والآن فلنبدأ ...

(نينوى)، (العراق) القديم ...

العام 3123 قبل الميلاد، وتحديدًا يوم 29 يونيو، فجرًا ...

موقعي الحالي في مكانٍ ما قُرب مدينة (الموصل) المعروفة في زماننا، و(نينوى) ستكون أكبر مُدن الإمبراطورية الآشورية في عصرها، وإنْ أتواجد الآن قبل هذه الفترة، فأنا الآن في عصر (سومر) القديمة، أقدَمِ حضارات (العراق) وواحدة من أعرق حضارات العالم القديم.

وتاريخ اليوم مُختار بدقَّةٍ بالغة.

سأشهدُ اليوم حدثًا مُخيفًا لا يعرف به الكثير من الناس، ومَن يعرفه لا يعرف الكثيرَ عنه، وما هو معروف غريب وغير مألوف، وكالعادة سأنقل المشهد بكلِّ أمانةٍ ودقّةٍ وكأنّك معي، فأعِرْني انتباهك جيدًا ...

أنا الآن وراء بعض الأطلال، ربَّما قصر قديم أو مبنى عبادةٍ ما، لا أدري، وليس مُهمًّا الحقيقة، فالمُهم هو ما يحدُث بالأعلى، على قمَّة ذلك التل.

هُناك رجلٌ ما مُتدثِّر بالأردية، غطاء رأس طويل يُخفي مَعالمه ولكنِّي أعرف أنَّه كاهن سومري، فماذا يفعل؟ وما سبب وجوده هُناك؟

هذا هو السبب ...

آه، نسيت وكُنت أُشير بأصبعي هاهاها ...

ما أُشير إليه في السماء، نُقطة مُضيئة واضحة تتحرَّك في ظُلمة الليل، وتتحرَّك بسُرعة أكبر من كونها مُجرد نجمة، وبالتأكيد ليست قمرًا صناعيًّا في عصرٍ لم يعرف أيَّ نوعٍ من أنواع التكنولوچيا بعد، أو على الأقل هذه هي الفكرة المُتعارَف عليها، ولكن هذا ليس موضوعنا الآن، المُهم أنَّ هذه النُقطة المُضيئة هي عِبارة عن كويكبٍ شارد من نوعٍ نعرفه في عصرنا باسم كويكبات Aten ... والـ Aten Asteroids هي مجموعة من الكويكبات التي تجُوب الفضاء في رِحلتها السرمدية مُخترقةً مجرَّتنا كسائر الأجرام السماوية ولكنَّها تختلِف في كون مسارها يعترِض مسار كوكبنا.

وبالتالي تُعتبَر هذه الأجسام خطرًا قائمًا دائمًا على سُكَّان هذا الكوكب وقتَمَا اخترقَ أحدهم غلافنا الجوي، فيُشكل دمارًا لكلٍّ ما يعترِض طريقه، وما يزيد الطين بلةً أنَّنا لا نعرف الكثير عنهم بعدُ، فمن بين 1841 كويكبًا نعرفهم في زماننا، 13 كويكبًا فقط منهم له

اسمٌ معروف به.

وهذا الضيف الغامض ليس واحدًا منهم ...

بقُطر أكبر قليلًا من الكيلومتر يأتي من أعماق الفضاء المجهول مُتَّجهًا نحونا، وبالمُناسبة، الكيلومتر هو مساحة كبيرة نسبيًّا في أحجام الكويكبات المُماثلة، ومع سُرعته المهولة هذه سيتحوَّل إلى كُتلة هائلة من اللهب عقبَ اختراقه للغُلاف الجوي واحتكاكه بطبقاته، تخيَّل كرةً من اللهب والنيران تسقُط على رأسك!

والآن وقد عرفنا الخلفية العلمية، نأتي لكاهِننا ...

يُطلَق عليه كاهن في هذا العصر، ولكن إن شِئنا الدقة فهو – بمُسمَّيات عصرنا – عالم فلك، فهو يَعتلِي نفس التلِّ كلَّ ليلةٍ بأدواته الفلكية البسيطة بمقياس عصرنا، المُتقدِّمة بمقياس هذا العصر، ويبدأ بمُراقبة السماء في الليل ويُسجِّل مُلاحظاته على ألواحٍ من الطمي باستخدام الـ Cuneiform أو الحروف المسمارية الشهيرة بكونها واحدةً من أقدم أنواع الكتابة في العالم بعد الكتابة التصويرية التي اشتُهر بها قُدماء المصريين التي تُعَدُّ الهيروغليفية أشهرَ مثالٍ لها.

وهدفنا هو واحد من هذه الألواح، وبالتحديد لوح على هيئة قُرص مُستدير.

هذا القُرص الذي يحمله في يده سيجده الأثري (هنري ليلارد) في خمسينيات القرن التاسع عشر، أي بعدَ أكثر من 45 قرنًا من الآن، هل تتخيَّل الرقم؟

المُهم أنَّه سيُعثَر عليه في أطلال الملك الأشوري (آشور بانيبال) هُنا في (نينوى) وسيتم حفظه في المُتحف البريطاني تحت رقم K8538 على هيئة نصفَين ستتمُّ ترجمة كلٍّ منهما وقتَها ولكن بدون تفسيرٍ مُعيَّن، فلا ننسى أن علم الفلك في القرن التاسع عشر لم يكُن مُتقدِّمًا بالشكل الكافي، حتّى مطلع القرن الحادي والعشرين ودراسات جامعة (بريستول)، وهي فترة تطوُّر برامج الكمبيوتر والمُحاكاة التي ستُعطينا الفرصة لرؤية شكل السماء كما هو الآن، ومنها سنعرف أن نصف اللوح الأول هو عبارة عن خريطةٍ لمواقع الكواكب المعروفة حتَّى الآن، والكويكبات التي تم رصدُها بل وتتبُّع لحركات السُّحب والتغيّرات المُناخية.

أمّا النصف الآخر فهو ما يُهمُّنا، ففيه يحكي الكاهن عن (الطبق الحجري الطائر) كما سيصِفه، سيكون كبيرًا كفاية لرؤيته بالعين المُجرَّدة، ومُضيئًا كالقمر في عتمة الليل، وأراه من هذه المسافة ينقُر على لوحِه بمعولِه الصغير مُدوِّنًا ما يراه.

واسمح لي أن آخذ دقيقة هُنا لأُعلِّق على مدى دقّته البالغة في توثيق الحدث، من حيث حجم الكويكب، سُرعته التقريبية، بل وصلَ به الأمر لتدوين زاوية اندفاعه في مساره نحو الأرض والتي تساوي حوالي الـ 6 درجات فقط، بمعنى أنّه لن يصطدم بها بل سيكتفي بالمرور في غلافها الجوي وسيظل مُخترقًا إيَّاه حتّى يُكمل طريقه مرّة أُخرى للفضاء أو يوقِفه جسمٌ ما، وهذه القياسات ستكون دقيقة لدرجة أن نِسبة الخطأ لن تتعدَّى الـ 1٪.

وللأسف حتّى في عصرنا بكل تقدُّمنا لن نعرف مصير هذا الكويكب ولا إلى أين سيئول، وإن بعد العديد من القياسات والقليل من التكهُّنات سيكون الاتجاه الأرجح نحو قريةٍ نمساوية ستُدعى في عصرنا باسم (كوفيلس Köfels) والتي ستُمثِّل وحدها لُغزًا جيولوجيًا للعُلماء في كون وجودها على مُنزلَق صخري في أحد جباله يُدعى (جامسكوجل Gamskogel) لن نعرف كيف تحرَّك من مكانه ولا الكيفية التي وصل بها للشكل المعروف في عصرنا.

وهُنا سيظهر رأي لمُهندسين يقول إن كويكب لوح (نينوى) هذا هو السبب في هذا الانزلاق بعدما أكمل طريقه عبر سماء العراق القديم واصطدم بقمّة الجبل سالِف الذكر فأطاح بها وزحزح الجبل من مكانه قبل أن يحترق تمامًا ويتلاشى نتيجة الاحتكاك والاصطدام الشديدَين.

وبالطبع لا بُد من رأيٍ مُعارِض، وهُنا سيظهر من يقول إن كلام المُهندسَين غير صحيح وأن الانزلاق أقدم من الحدث، ويعود إلى حوالي 9500 سنة تقريبًا، فبالتَّالي لا يُمكن أن يكون الكويكب هو السبب فيه ... وحتّى هذا الرأي المُعارض له رأي مُعارض فيقول أصحابه إن هذا الرقم 9500 سنة ليس الأدق بالضبط في كون التركيب الكيميائي للكويكب قد تلاعَب في التركيب الكيميائي للصخور المكوِّنة لمنطقة الانزلاق وغيّر في نتائج التحاليل والفحوصات التي تمَّت عليها ليذهب بعُمر الانزلاق من 5000 سنة إلى قُرب الضعف، أي الـ 9500 سنة، وحتّى لحظة تسجيلي لهذا الحدث لا يدري أحدٌ أين الحقيقة بالضبط. والآن، الجُزء الأكثر إثارةً

في الموضـ...

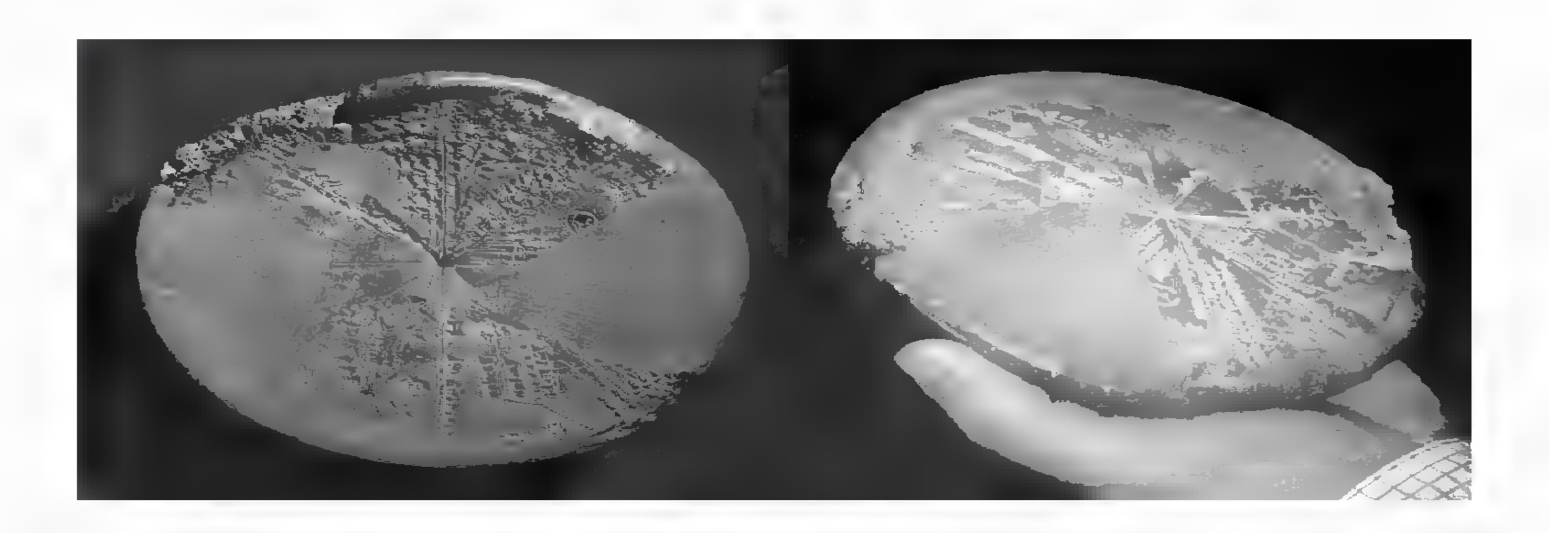
مهلًا ... ما هذا ...؟ هووف، هووف ... لا أدري ما السبب ولكن، أشعر أن الحرارة حولي ارتفعت قليلًا ...

يبدو أنِّي بحاجةٍ لتغيير مكاني ...

لحظات ...

***

وهُنا ارتفع صوت خطواته وهو يتحرَّك مصحوبًا بصوت لُهاثه، وكأنَّه يبذل مجهودًا كبيرًا في الحركة، رُبما لأنه في مكانٍ عالٍ، أو هكذا فكَّر (يوسف) لنفسه وهو يفتح الملفَّ الخاصّ بالتسجيل ويسحب منه عدَّة صور، منهما اثنتان تُمثِّلان قُرصًا حجريًّا مُستديرًا عليه نقوش وثقوب صغيرة وإن مُحِيَت أغلب الرسومات من عليه، إذًا فهذا هو القرص الذي يحكي عنه الرجُل، صغير، ربَّما في حجم رغيف من الخُبز ...



أمّا الورقة الثالثة فكانت عبارة عن نُسخةٍ من لوحةٍ زيتية مُلونة

لما يبدو وكأنّها مدينة كبيرة تلتهمها النيران من على بُعد نحو الأُفُق، بينما الجُزء الأقرب للرائي يبدو وكأنّه رجل عجوز يسنده ملاكان بأجنحةٍ مفرودة ومعهما رجلان آخران أو رجُل وامرأة وجميعهم يهربون من النيران، وعنوان اللوحة (سدوم وعمورة تحترقان) بريشة (Jacob de Wett II) والعام 1680 ..

انتهى (يوسف) من تفقُّد الصور ثم ناولها لـ (إيمان) التي أخذت تتطلّع فيهم بدورها، في نفس الوقت الذي ارتفع فيه صوت الرجل مرةً أُخرى وهو يُتابع حديثه بنفس الأنفاس اللاهثة ...



***

ا... الآن ... أنا ... هووف ... في مكانٍ ما أبعد قليلًا ولكن، حسنٌ، لا زلتُ أستطيع رؤية الكاهن من هُنا، رائع ...

المُهم أنِّي كُنتُ على وشك سرد الجُزء المُثير من الحكاية ...

هُناك نظريةٌ ما تقول إنَّ ذيل هذا الكويكب سيكون كبيرًا كفاية ومُشتعلًا بالدرجة المُناسبة مع زاوية اختراقه للغلاف الجوي كي يعبُر بسُرعةٍ بالغة عبر البحر الأبيض المُتوسط و(سيناء) وشمال (مصر)، ولكن قبل أن يصل لهذا الحدِّ سيعبُر فوق بلاد الشام، وفي أثناء رحلة طيرانه هذه سيتسبَّب في سقوط كُراتٍ من النيران والصخور المُشتعلة على كل الأماكن التي سيمُرُّ فوقها، ناهيك عن الانفجار النهائي – إن حدث - والذي سيُوازي انفجار 1000 طن من مادة الـ TNT، ومن ضمن تلك المناطق التي سيعبُر من فوقها الكويكب 5 مُدن يقطنها البشر ومذكورة في التاريخ وفي الكتب السماوية المُختلفة ..

(سدوم) و(عمورة) و(أدمة) و(صويم) و(بالع) ...

وهي المُدن التي بُعِث فيها النبي (لوط) عليه السلام ...

لا أدري مَن سيستمع لهذا التسجيل مِن بعدي ولا ما ديانته ولكن القصَّة مذكورة في جميع الكُتب المُقدَّسة، ففي الإنجيل على سبيل المثال تحديدًا في سِفر (التكوين) الإصحاح 19 الآيات 23 و24 حيثُ ذُكر (وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر، فأمطر الربُّ على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الربِّ من السماء)، وهُنا لا بُد أن أسأل، هل لاحظت التعبير (أمطر الرب كبريتًا ونارًا) ...؟ ألا يُذكِّرنا هذا الوصف بالمواد المكوِّنة لذيل الكويكبات والنيازك ...؟

وفي القرآن الكريم تعبيرٌ أكثر توضيحًا في سورة (هود) الآية 82 في قوله (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) ... بل في سورة (العنكبوت) آية ربّما أكثر وضوحًا في قوله (إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) ...

(رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ) ...

هل هذا معناه أنَّ تدمير هذه المُدن كان بسبب هذا الكويكب...؟

خصوصًا أنَّنا الآن متواجدون تقريبًا في نفس فترة النبي (لوط) كما هو مُعتقَد في الكتب الدينية، لا أحد يدري، هي مُجرَّد تكهُّنات ...

ويا إلهي، المنظر مُرعِب من هُنا ...

هذا الحجم وهذه الضوضاء، والحرارة ...؟ يكادُ لفحُها يحرق أطراف الأشجار وهو لا يزال على مسافة آلاف الكيلومترات، ما بالُ مَن سيشهد سقوطه فوق رأسه ...؟!

كُنتُ أقول إن هُناك بعثة أمريكية في زماننا ستتمكَّن من العثور على بقايا ستُشير جميع الدلائل أنَّها تعود للمدينتَين الأشهر (سدوم) و(عمورة) وذلك بعد تنقيبٍ سيستمرُّ لمدَّة 10 سنوات في منطقة تُدعى (تل الحمام) في (الأردُن)، والغريب أنَّ المنطقة التي سيعثرون فيها على تلك البقايا هي منطقة صحراوية جرداء لا أثر فيها لأي استعمارٍ بشري ولا موجودة في أي خريطةٍ قديمة، ولا حتَّى في حكايات الأوَّلين، أي إن تلك البقايا ستظهر من العدَم ...

وعلى لسان مُدير البعثة البروفيسور (ستيفن كولينز) سيقول إن الحياة في تلك المُدن قد انتهت فجأة وبدون سابق إنذار، وأنَّ بقايا المباني والقصور والمعابد تشِي بأن تلك المُدن كانت كبيرة الحجم وحيوية الطابع وقد انتهت على حين غرَّةٍ بدمارٍ مُفاجئ ولن يتبقَّى سوى أجزاء بسيطة للغاية هي كل ما ستجِده البعثة بعد آلاف السنين ...

ربّما في هذا تحقيق لباقي القَصَص القرآني في الآية (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، وخاصةً إذا ما علِمنا أنَّ من ضمن ما ذكره (كولينز) من وصفٍ لبقايا المدينة أنّها كانت مقسومة لقسمَين، قسم علوي وقسم سُفلي، وفي ذلك إشارة أُخرى لنفس الآية سالفة الذكر (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) ...

في الحقيقة لا أحدَ يدري أين الحقيقة، أنا فقط أُفكّر بصوتٍ عالٍ ...

***

ارتفعت أصوات جلبةٍ مُخيفة في الخلفية وصوتُ صرير رياحٍ عالٍ يشتدُّ مع كل ثانية تمُر من التسجيل ...

***

يبدو أنَّ الأمر قد اقترب ولاحت لحظةُ الحقيقة، ومهما وصفتُ ومهما كان مخزوني اللغوي فلن أستطيع أن أصِف مدى ما يتملّكني من فزعٍ ورُعب ...!

ارتفعت درجة الحرارة إلى حدٍّ لا يُصدَّق، واشتدّت الرياح لدرجة أنّ الأشجار تتمايَل بعُنف وكأنّها أعواد من المعكرونة، وقد تحوَّل الليل الحالك إلى قطعةٍ من النهار الشديد القيظ بسبب الضوء المُبهر والحرارة اللافحة للكويكب ...!

لماذا أشعُر وكأ... ني ... ـي ... المكـ ... الخـ ... ط ...

... ...

هذا الكويكب يبد.. أقر... مما ... كُنـ ... أتـخـ ...

***

ولم يُكمل الرجل حديثَه مع صوت الرياح العاتية أعقبه انفجار هائل أعنفُ من أي شيءٍ سمِعاه من قبل، قبل أن يتوقَّف التسجيل أمام أعين (يوسف) و(إيمان) المذهولة من هَول ما سمِعاه لتوِّهما ...

مع كل تسجيلٍ يظُن (يوسف) أنّه قد سمع أغرب ما سمِعَه في حياته وأنَّ لا شيء سيُدهشه بعدها، ثم يأتي التسجيل التالي ليُفجِّر هذه الفكرة وينسفها من رأسه ويغمُره بمشاعر مُختلطة ما بين الرُّعب والإثارة والاندهاش والفضول القاتل لمعرفة ما يحدُث، أو – إن شئنا الدقة – ما حدث بالفعل ...

قطعت حبل أفكاره (إيمان) وهي تسأله بصوتٍ ما يزال مأخوذًا من المُفاجأة:

– هل مات ...؟

– امممم لا أدري، هُناك تسجيلات عديدة، بالتأكيد لم يمُت ...

هزَّت كتفَيها وهي تُكمِل في عناد:

– وما يضمن أن هذا التسجيل بالذَّات هو آخِر تسجيل ما دام أنَّها ليست بترتيبٍ مُعيَّن ...؟

– لا أدري يا (إيمان)، حقًّا لا أدري ...

– وهل جميع هذه التسجيلات من نفس العينة ...؟ هذا رُعب من نوع آخر ...

– يعني، بشكلٍ أو بآخَر نعم ...

– إذًا فهذه هي إشارة رحيلي، فأنا لا أستطيع أن أتحمَّل المزيد من هذا التوتُّر، لديَّ منهُ ما يكفيني في المنزل ...

وقرنَتْ قولَها بقيامِها من مكانها بالفعل، وضبطت ملابسها وهي تزفر بقوَّةٍ لتُخرج توتُّرها وهي تُكمل:

– سأمُر على والِدَتي أقضي معها باقي النهار، يُمكنك أن تُقلَّني عند انتهائك ...

ثم أشارت إلى الصندوق وهي تستطرد:

– هل ستستمع لكلِّ هذا ...؟

كان (يوسف) قد قام من كُرسيه هو الآخر وهو يُخرج مفتاح السيارة من جَيبه ويُناولها إيَّاه مُجيبًا:

– لا أدري، تبقَّى ما يقرُب من الثماني أسطوانات، لم أحصُر عددها ولكن الفضول يقتُلني فسأترك إجابة هذا السؤال لفضولي، وهاكِ،

خذي السيارة ...

– وأنت ...؟

– سأتصرَّف، ربَّما أتَّصل بـ (سامي) ليمُرَّ عليّ، هيّا ...

هزّت كتفَيها وأخذت منه المفتاح وانطلقت وكأنَّ الجحيم في أعقابها في حين أغلق (يوسف) الباب وراءها واتَّجه نحو صندوق التسجيلات ورتَّب مُحتوياته كعادته وأعاد ملفَّ تسجيل الكويكب مكانه وسط صندوق الوثائق، قبل أن يتفقَّد الأسطوانات بحثًا عن مُغامرة جديدة ...

كان قد سهَّل على نفسه الأمر ورتَّبهم في كومتَين، واحدة للأسطوانات التي سمِعها بالفعل، والأُخرى لتلك الّتي لم يسمعها بعدُ، فسحبت أصابعه واحدةً من مُنتصف الكومة الأخيرة عشوائيًا ليُلقي نظرةً على عنوانها قبل أن يسحبها من غلافها ويضعها على محور الجرامافون ويُدير الذراع ويعود لمقعده، ثم تذكَّر أنَّه لم يجلب الملفَّ الخاصَّ بالتسجيل، فقام مرَّةً أُخرى ورفع الذراع ليوقف الأسطوانة ويعبث قليلًا في الصندوق الآخر ليُخرج الملفَّ ويعود مكانه بعد أن أعدَّ العُدّة ولم تمُر ثوانٍ إلَّا وكان الرجل قد بدأ الحكاية التالية ...

لُغز المرأة السَّامَّة

1994

التاسع عشر من فبراير عام 1994 ...

مُستشفى (ريفرسايد) في ولاية (كاليفورنيا) ...

تحديدًا غُرفة الطوارئ، الساعة 8:12 مساءً ...

استطعتُ أن أحصُل على رداء تمريض من غُرفة الملابس، فلا بُد أن أتواجَد هُنا خلال الدقائق التالية، تأكّدتُ من إحكام ردائي وقناع الوجه في مكانه، فهذا القناع هو أهمُّ ما في الليلة، وأمامي بضع دقائق لأحكي فسأحاول أن أكون مُختصرًا.

في خلال ثلاث دقائق من الآن سيدخُل من هذا الباب مُسعِفون يدفعون أمامهم محفَّةً ترقُد عليها (جلوريا راميريز) صاحبة الواحد والثلاثين عامًا، تُعاني ممّا يُعتقَد أنّه مرحلة مُتقدِّمة من سرطان الرحم مع زيادةٍ في ضربات القلب وصعوبة في التنفُّس وعلى شفا السقوط في غيبوبة، وعند دخولها سيبدأ طاقم إسعاف الطوارئ في حقنِها بكلٍّ من (ديازيبام) و(ميدازولام) و(لورازيبام)، لتهدئتها قليلًا، ولكن - وللأسف - لن ينجح الأمر فسيُضطرُّون إلى وضعها على جهاز إنعاش القلب في الرُّكن هُناك لمحاولة السيطرة على الموقف في أسرع وقت.

سيبدو الأمر أصعبَ من المُعتاد، ستظلُّ حالتها حرجة و...

مهلًا، ها هي قد جاءت ...

***

وهنا تعالى صوت عجلات محفَّةٍ تصرُّ عبر الباب مع أصواتٍ أُخرى مُتداخلة لأكثر من شخصٍ يتحدّثون في نفس الوقت في حدَّةٍ واضحة تنقل خطورة الموقف، قبل أن تظهر أصوات أجهزة الإنعاش وقياس المعدَّلات الحيوية جليةً في خلفية التسجيل، انتهز الفرصة فيها (يوسف) وسحب محتويات الملفِّ ليجد صورةً واحدةً فقط لامرأةٍ لطيفة المظهر تبتسِم في رقّةٍ، أغلب الظن هي لـ (جلوريا).



ألقى (يوسف) نظرةً سريعة عليها بينما تابع الرجل كلامه ...

***

أخذتُ رُكنًا بعيدًا وكأنّي أوثِّق ما يحدُث، كي أستطيع أن أُكمل تسجيلي وفي نفس الوقت أُتابع الإجراءات المُتّبعة في الحالات الشبيهة، وذروة الأحداث ستكون بعد رُبع ساعة من الآن، وحتّى هذه اللحظة دعني أنقل الصورة كاملة.

أول مُلاحظة هي جسد (جلوريا) نفسه، وتحديدًا بشرتها، أراها من هُنا تلمَع بلمعةٍ زيتية غريبة، لن يعرف أحد سببها، ناهيك عن رائحة الثوم التي بدأت تتصاعَد من فمِها والتي ستظلُّ أيضًا مجهولة السبب، وأخيرًا لن نعرف سبب تصاعُد رائحة الأمونيا من أنبوب اختبار الدم، وهذا ما ستُلاحظه المُمرضة (سوزان كاين) عندما ستُحاول أن تسحب منها عيِّنة، وقتها لن تُعير (سوزان) الأمر اهتمامًا بالغًا وسط حالة الارتباك العام المُسيطِر على الوضع، وستُناول الأنبوب لمُشرفة التمريض (جولي جورشنسكي) التي ستُلاحظ وجود شوائب ملوَّنة في عينة الدم، شوائب غريبة، أي أن باقي دمِها يحتوي على شوائب مُريبة المنظر.

ولن يكون هذا هو نهاية الغرابة ...

ما إن تتناول (جولي) الأنبوب من يد (سوزان)، حتَّى تبدأ الأخيرة في الترنُّح في بُطءٍ قبل أن تفقد توازنها وتسقط مغشيًا عليها بدون أدنى سببٍ واضح، مُمرضة مُخضرمة تفقد وعيَها بعد سحب عينة دم ...؟

قبل أن نُفكِّر كثيرًا، ستهُبُّ (جولي) لمُساعدة (سوزان) قبل أن تذكُر أنّها تشمُّ رائحةً غريبة ثُم تبدأ هي الأُخرى في الترنُّح وتشتكي

أن رأسها أصبح خفيفًا وأنَّها تشعر بالإعياء المُفاجئ بدون أي مُبرر، فستطلُب أن تخرُج من الغُرفة لتلتقِط أنفاسها في هواء الممرِّ الخارجي حيثُ سيُقابلها زميل لها ويُلاحظ إعياءها وقبل أن يسألَها ما خطبُها ستسقط هي الأُخرى مغشيًّا عليها بين يدَيه، بل وسيمتدُّ الأمر إلى تلك المُمرضة هُناك (مورين ويلش) لتسقُط هي الأُخرى فاقدةً الوعي خلال دقائق، وهُنا ... وهُنا فقط سيبدأ الطاقم في اعتبار الأمر احتمالية خطرٍ على الجميع بعد أن يتساقط أفراد طاقم التمريض واحدًا تلوَ الآخر ...!

وبما أنَّ هُناك بعض الحالات - النادرة - المُسجلة لأطقم تمريض يتساقَط أفرادهم مرضى نتيجة انبعاث غازاتٍ مُؤذية من المرضى، فسيتمُّ نشر حالة الطوارئ في المُستشفى في الحال وسُعلِن غُرفة الطوارئ هُنا خطرًا بيولوجيًّا مُحتملًا يتمُّ على إثره نقل أسرَّةِ باقي المرضى خارج المكان في ساحة المُستشفى حيثُ الهواء الطلق بعيدًا عن أي انبعاثاتٍ ضارَّة مُحتمَلة.

لك أن تتخيّل أنّ في نهاية هذه الليلة المشئومة سيصِل إجمالي عدد الأشخاص المُتساقِطين، ضحية الخطر المجهول، 23 شخصًا، سيتم حجز 5 منهم في نفس المُستشفى في حالةٍ حرجة، وبدون أدنى سببٍ واضح ...

وسيظلُّ التوتر يعمُّ الأجواء حتّى تصِل عقارب الساعة إلى الثامنةِ وخمسين دقيقة، حيثُ سيتوقف قلب (جلوريا) عن العمل وتفشل جميع مُحاولات إنعاشِها وتُعلَن وفاتُها رسميًّا حيثُ سيتم وضع جسدِها في كيسٍ بلاستيكي مُحكم الإغلاق لاحتواء العدوى الغريبة

المجهولة المصدر ...

بعدها ستظهر عدّة تفسيرات لما سيحدُث هُنا، أقربها للمنطق هو الـ DMSO ...

بدون الدخول في تفاصيل طبِّية مُعقّدة فـ (ثنائي ميثيل السلفوكسيد) هو مُركَّب كبريتي عضوي معروف من العام 1866 على يد العالِم الروسي (ألكسندر ميخائيلوفيتش زايتسيف)، كانت (جلوريا) تستخدِمه بكثرةٍ كمُسكّن لآلام الروماتيزم الذي كانت تُعاني منه، ووحدَه لا يُشكل خطورة ولكنّه يبعث رائحةً شبيهة برائحة الثوم، كما أنَّه يُباع على هيئة (جِلّ) ربما يُفسِّر ذلك اللمعة الزيتية لبشرة (جلوريا) بعد أن تشرَّبته خلاياها، وأقول إنّه ليس خطرًا وحدَه، لأنّه لا بُد من اتِّحاده بالأُكسجين، وهُنا يأتي دور الإفاقة ...

بالطبع أول خطوة تتمُّ لإفاقة أي مريضٍ هي قناع الأُكسجين، وعندها سيندفع الغاز ليتَّحد مع (ثنائي ميثيل السلفوكسيد) ليكوِّنا الـ DMSO2 (ثنائي ميثيل السلفون) الذي يتَّخذ شكل كريستالات مُتناهية الصغر، وهذا قد يُفسِّر الشوائب التي رأتها (جولي) في عيِّنة الدم ...

وأخيرًا يُعتقَد أن الصدمات الكهربائية من جهاز الإنعاش الذي وُضعت عليه (جلوريا) سيحوِّل هذا الـ DMSO2 إلى DMSO4 أو (ثنائي ميثيل السولفات) وهو غازٌ سامٌّ قويٌّ عند التعرُّض له يُسبِّب أعراضًا تُشبِه تلك التي سيُعاني منها الطاقم الطبي ...

هل عرفتَ الآن سبب القناع الذي أرتديه ولِمَ هو أهمُّ قطعةٍ في هذا

الزي ...؟

بقي فقط أن أذكُر أن حالة (جلوريا راميريز) ستُصبح لُغزًا مُثيرًا تتحدّث عنه الوثائقيات، وسيُصبح اسمُها معروفًا في الأوساط الطبية بـ (المرأة السامَّة) بل وستكون محور حلقاتٍ لمُسلسلاتٍ تليفزيونية شهيرة مثلًا X-Files وLaw and Order وأيضًا Grey's Anatomy في محاولة لفكِّ اللُّغز ...

والآن، انتهى رُبع الساعة وها هي (سوزان) تتَّجه بالمحقن لذراع (جلوريا) لسحب العينة، وأنا سأُنهي التسجيل لأني سأقترِب أكثر من الطاولة ...

مُستشفى (ريفرسايد) (كاليفورنيا) ...

1994 ...

انتهى ...

***

هذه المرة لم يكن الأمر مُخيفًا بقدْر ما كان غريبًا ...

تخيّل (يوسف) نفسَه مكان أي مُمرضٍ منهم ويتدخَّل لإسعاف مريضة ويُفاجَأ بنفسه أو بأحد زملائه يسقط مغشيًّا عليه أو الأسوأ أن يسقط مريضًا في نفس المُستشفى، وبدون أي تفسير.

مع كل تسجيل يشعُر (يوسف) وكأنه يُولَد من جديدٍ بتعرُّفِه على عالَمٍ كاملٍ لم يدْر بوجودِه قبل أيامٍ قليلة ...

قام من مكانه ورفع ذراع الجرامافون وأعاد الأسطوانة لمكانها مع الملفِّ الخاصّ بها، قبل أن يتفقّد الصندوق بنفس اهتمام كلِّ مرّة، أسطوانةً تلوَ الأُخرى، حتّى توقَّف عند واحدةٍ حملت عنوانًا مُقبِّضًا أسرى كهرباء خفيفةً في عموده الفقري ...

فكّر للحظةٍ هل يستمع لهذا التسجيل أم يترُكه لوقتٍ لاحق، وبالفعل ألقى نظرةً سريعة على باقي الأسطوانات ولكن خانته عيناه في كل مرَّة لتعود وحدَها إلى نفس الأسطوانة، فاتَّخذ قراره وسحبَها من غلافها ووضعها في مكانها، وبحث سريعًا عن الملفِّ الخاصّ بها وما إن وجده حتّى سحبه هو الآخر واتّخذ مكانه على الكرسي بعد أن أدار ذراع الجرامافون وبدأت الأسطوانة في الدوران، وتعالى صوت الرجل وهو يحكي ببُطءٍ وخفوتٍ وكأنّه يُشارك في إضفاء الرُّعب على التسجيل الذي كان اسمُه وحدَه يكفي ...

شياطين (إستيفانيا لازار)
1991

مرَّ وقت طويل منذُ أن ذهبتُ في رحلة من رحلاتي بعد أن أخذتُ وقتًا طويلًا في التعافي من المرة السابقة، وأتمنَّى فقط أن تمُرَّ هذه الرحلة على خير، فقط وجب التنبيهُ أنِّي سأنتقل عدّة مراتٍ في الزمن لمُتابعة عدَّة نقاطٍ مُهمَّة جميعُها ذات صلةٍ بنفس الموضوع قيد التسجيل ...

أوَّلها هو هُنا حيثُ طريق مدينة Vallecas السريع، في (مدريد) الإسبانية، تحديدًا جنوبها، والعام هو 1990، في يومٍ ما من أيام شهر ديسمبر، قبل ثلاثة أسابيع من الحكاية الرئيسية، مشهد سريع أودُّ أن أشهده أولًا، ولأكون صريحًا فالحدَث نفسه لن يُهمَّنا للدرجة ولكن سنعرِف تبِعاتِهِ لاحقًا ...

ها هو ذا ...

درَّاجة نارية سوداء تمضي بسُرعةٍ بالغة وتهوُّر صريح، معروفة نهايتها بالطبع ...

***

صمت الرجُل وارتفع مكان صوتِه صوتُ صُراخ فرملةٍ عالية على الأسفلت، فتصادُمٌ عنيفٌ أعقَبَه صُراخ وعويل ثم ساد صمتٌ تامٌّ مرّةً أُخرى، قبل أن يأتي صوت الرجل مرةً أُخرى

وهو يتنهَّد ثم يُتابع في هدوء ...

***

حسنٌ، أنا الآن بعد الحادث بثلاثة أسابيع، أواخِر يناير 1991...

على الرصيف الآخر من مدرسةٍ ثانوية مُختلَطة أُتابع الفتيات اليافِعات أثناء دخولهنّ للفناء، ليس لغرضٍ ممّا قد يدور في مُخيّلتك، فامسح الابتسامة الخبيثة من فضلك، فأنا في انتظار فتاةٍ بعينِها هي بطلة رحلة اليوم ...

وها هي تأتي مع صديقاتها من على بُعد ...

(إستيفانيا جوتييريز لازار) ...

وكما سمعتني أنطقها (إستيفانيا) بتفخيم الفاء وليس تخفيفها، وكأنّك تنطق كلمة فضاء مثلًا، المُهم، (إستيفانيا) شابّة مُراهقة عادية، لها أحلام وطموحات واهتمامات مثلها مثل مَن هم في سنِّها، وما يُهمُّنا هُنا من اهتماماتها هو جُزء صغير خطير، ألا وهو اهتمامها بالماورائيات أو البارانورمال والسِّحر والغموض.

فكثيرًا ما يراها أصدقاؤها وجيرانها تعود للمنزل مُحمَّلةً بالمجلات والجرائد والدوريات المُتخصِّصة التي تتناول هذه المواضيع لتقرأ فيها في شغفٍ وتلتهِمها الْتهامًا خلسةً بعيدًا عن أعيُن والدتها القلقتَين.

وكي تستطيع أن تتخيَّل فالمكان هُنا مُزدحِم، الطلبة يمرحون في كل مكانٍ وسط الهرَج والمرَج، فاليوم يوم مُميّز.

يُنسّق المُدرِّسون والمشرفون المساحات ويُرتِّبون الطلبة في

طوابير بعضهم على أسطح المبنى والبعض الآخر في فناء المدرسة انتظارًا لكُسوف كُلِّي للشمس على وشك الوقوع، أول كُسوف كُلِّي تشهدُه المنطقة؛ فحالة غير طبيعية من الحماسة تنتاب الجميع، وعليها جلب الكثيرون نيجاتيف الأفلام التصويرية ونظارات داكنة مُخصَّصة للنظر من خلالها إلى الشمس وقت الكسوف كي تقيهم الأشعة فوق البنفسجية الضارّة المُنبعِثة منها، فكما قُلت، الجميع مُتحمِّس ومُستعد للإثارة.

الجميع ما عدا (إستيفانيا) ...

بالطبع لن يكون في استطاعتي نقل الصورة، ولكنِّي سأصفُ لك المشهد، (إستيفانيا) تقف مع صديقتَي طفولتها (ديانا) و(روزا) على جانبٍ من الزحام يتناقشنَ في شيءٍ ما مُهم، لا بُد وأن يكون مهمًّا كفاية كي يسحبهنَّ من حالة الحماس التي تعمُّ المكان، لا أستطيع أن أسمع من مكاني هُنا ما يجري، ولكنِّي أُدرك ما يشغلهُنَّ الآن ...

تعوَّدتُ ألّا أبدأ بتسجيل الحكايات إلّا بعد أن أستعيد كاملَ ذاكرتي؛ فهذا يوفِّر وقتَ التسجيل ويجعل التركيز على الحدَث نفسِه أكبر ...

المُهم، هُنَّ الآن يتناقشنَ في الضيق المُرتسِم على وجه (ديانا)، في بُكائها، وفي حُزنها على حبيبها الذي لاقى حتفَه من فترةٍ قريبة جدًّا، تشتكي أنَّها تجد صعوبةً بالغة في نسيانِه وتخطِّي فكرة عدم وجودِه، منذُ أن ذهب وهذا هو حالُها، بُكاء ونحيب واكتئاب وجميع المُحادثات تنتهي إليه، وأن رغبتها العارمة في سماع صوتِه ولو لمرَّةٍ أخيرة تكادُ أن تتخطَّى رغبتها في الحياة نفسها، لا أدري هل

استطعتَ أن تُخمِّن أم لا، ولكن حبيبها هو سائق الدراجة النارية إيَّاها ...

ليتك معي الآن لترى تلك اللمعة في أعيُن (إستيفانيا)، لمعة تدُلُّ على أن هُناك فكرةً ما تختمِر في رأسها، وللمرّة الثانية لا أدري هل خمَّنتَ أم لا ...

***

اختفى صوت الرجل والضوضاء من حوله وارتفع مكانها صوتٌ وكأنَّه تفريغ هواء قبل أن يسود الصمتُ مرّةً أُخرى للحظاتٍ ثم يعود الرجل للمُتابعة ...

***

أنا الآن في بدرومٍ قديم يُستخدَم كغُرفة كرار داخل المدرسة، أختبئُ خلف كومةٍ من الصناديق كي أُتابع ما سيحدُث الآن حيثُ ستدخُل (إستيفانيا) من هذا الباب مع كلٍّ من (ديانا) و(روزا) بعد أن أقنعتهما بانتهاز فُرصة انشغال المدرسة كلِّها بمُراقبة الكسوف، والمجيء إلى هُنا كي تُساعد (ديانا) في التحدُّث لحبيبها المُتوفَّى بخِبرتها في مجال ما وراء الطبيعة ونيَّتها لمُساعدة صديقة عُمرها ستحاول (إستيفانيا) التواصُل مع روح حبيب (ديانا) باستخدام لوح (ويجا).

وسأنتهزُ فُرصة انتظاري لقدومهنَّ في توثيق ما أتذكَّره عن هذا اللوح.

لوح الـ (ويجا) أو (لوح الأرواح) كما يُطلِق عليه البعض، هو لوح خشبي مكتوب عليه الحروف الأبجدية مع الأرقام من 0 إلى 9، بالإضافة لكلمتَي (نعم) و(لا) وفي بعض الأحيان تُوجَد كلِمَتا (أهلًا) و(وداعًا) حسب الإصدار، وفي العموم ظهرت فكرة هذا اللَّوح في القرن التاسع عشر، تقريبًا قُرب العام 1886، بعد اقتناع بعض المُهتمِّين بمجال الروحانيات والسِّحر وخلافه بإمكانية التواصُل مع أرواح الموتى عن طريق لوحةٍ مكتوب عليها الحروف، تجري عليها قطعة خشبية مُثلّثة أو مُدبّبة قد تُشبه المكواة نوعًا ما، تُدعى (بلانشيت – Planchette) تُشير إلى كلِّ حرفٍ تلوَ الآخر ليكوِّن كلمةً فجملةً وهكذا ..

فقط ليأتي مَن يُدعى (إليجاه بوند) ليصنع اللوحة بشكلِها المُتعارَف عليه الآن في يوليو 1890.

طبعًا لا دليلًا علميًا واحدًا يؤكّد ما ينسِبُه الكثيرون لهذا اللَّوح من قُدرات، بل إنّ الكثير منهم يختلفون حتّى في أصل كلمة (ويجا) فيرى البعض أنّها كلمة مُحرَّفة من كلمتي Oui بالفرنسية وJa بالألمانية التي تُنطق (يا) مُفخَّمة، اللتَين تعنيان (نعم) المكتوبة على اللوح، والبعض الآخر يرى أن الاسم مُشتَقٌّ من اسم بيتٍ في مدينة (بالتيمور) الأمريكية، في حين أن الرأي السائد أن أول مَن استخدَم الكلمة كانت سيدة تُدعى (هيلين بيترز) كانت تمتهِن الوساطة الروحية – وهي بالمُناسبة زوجة أخي (إليجاه بوند) – وكانت تستخدِم اللوح في إحدى جلساتها فسألت الروح الحاضرة وقتَها عن اسمٍ للَّوح، فتحرَّكت القطعة الخشبية للحروف O U I J A، وعندما

سألت (هيلين) الروح عن معنى الكلمة، أتاها الجواب بسُرعة فيما معناه (حظًّا سعيدًا) ...

ولَعَمري هذا الرأي أكثر قتامة ...

وها هُنَّ قد جئنَ، (إستيفانيا) لا تُضيِّع وقتًا أبدًا ...

أراها من مَكمني ترسم نجمةً خُماسية على الأرض، لا بُد من وجود نجمةٍ خُماسية في أي مكانٍ وأي نشاطٍ شبيه، بعد أن انتهت من رسمتها بدأت توزِّع شموعًا مُضيئة على الخمسة أطراف المُدبَّبة قبل أن يجلس ثلاثتهنَّ في مُنتَصف الرسمة، وكانت (إستيفانيا) قد فردت لوحةً بدائية تُشبه لوحة الـ (ويجا) كانت قد ابتاعتها من محلٍّ قريب، وأبدلت قطعة البلانشيت بكوبٍ زُجاجي صغير شفَّاف مقلوب ووضعنَ أناملهنَّ الرقيقة على طرفِه، ثم بدأت في التمتمة بأشياء هي وحدَها تعرفها أمام أعين (ديانا) و(روزا) الخائفتَين ...

إممممم، يا إلهي ...

لا أدري هل يصل ذلك إلى التسجيل أم لا ولكن ... هُناك أصواتٌ خافتة وكأنها همسات شيطانية وخبطات على الحوائط، أضواء غريبة تتراقَص في سماء الغُرفة، بل أكادُ أُقسِم أنِّي أشعُر بنَفَس دافئ في مُؤخرة رأسي، أصوات خطواتٍ ثقيلة، مع روائح كريهة، أشبَه بلحمٍ مُتعفِّن، يا إلهي ...!

كل ما ذُكر في المصادر كان حقيقيًّا وليس تهويلًا ...!

حتَّى اقتحام ذلك المُدرِّس جلسة التحضير قبل أن تنتهي بالشكل

اللائق، أراهُ من مكاني يعصف بالمكان في غضبٍ ويُعنِّفهنَّ ويطلب مُنهنَّ العودة للفصل بعد أن قام بتمزيق اللوحة وكسر الكوب، ولكن ... وضَع عشرة خطوط تحت كلمة (لكن) هذه ...!

لقد رأيت نفس ما رأتْهُ الفتاتان وذكرَتاهُ في شهادتِهما لاحقًا ...

رأيتُ دُخانًا خفيفًا باهتًا يخرُج من اللوحة المكسورة وينسلُّ مُتسللًا عبر أنفِ وفم (إستيفانيا) بدون أن تشعُر هي ...!

***

وهُنا رفع (يوسف) ذراع الجرامافون ليوقِف التسجيل ليلتقِط أنفاسه ويُسيطر على انفعالاته وهو يحمد الله أن (إيمان) قد رحلت، فلو كانت سمِعت ما سمِعه ... لا يدري ... ربَّما كانت تركَتْه ليبيتَ عند أهلِه أسبوعًا على أقلّه، فانتهز الفُرصةَ وسحبَ الصور من الملفِّ ليُلقي نظرة.



كانت الصورة الأولى لفتاةٍ شابَّةٍ تُشبه الفنَّانة أصالة — فقط إن كانت أصالة تُشبه الفنان إبراهيم نصر — خمَّن (يوسف) أنَّها تلك الفتاة (إستيفانيا) من التسجيل، ولم يستطِع أن يُقاوم إضافة اسم (روستي) ويضحك ضحكةً خافتة على تفاهته وعزا ذلك لمحاولتِه كسر الرهبة والتوتُّر اللذَين يُغلِّفانه الآن ...

بينما صورةٌ أُخرى لها في إطارٍ خشبي أسود، وعليها آثار حروق مكان الوجه، وكأنَّ أحدًا ما أضرم فيها النيران، لم يفهم كُنهها، وإن عزا احتراقها لسببٍ ما لم يذكُره الرجل بعدُ في تسجيله إن كان سيذكُره من الأساس ...



الورقة الأخيرة لم يفقه منها شيئًا البتَّة، كانت أقربَ لأشكال التقارير الرسمية ولكنَّها بالإسبانية وبحروفٍ مطبوعة على آلةٍ كاتبة ممَّا جعلها أصعب حتَّى للقراءة...

FECHA 27.11.92 16:01:44 PAGINA : 1

ID	FECHA CREACION / FECHA CIERRE	CODIGO	[illegible]	DIRECCION	[illegible]
	19/11/92 01:30	12-00	SERVICIOS EN GENERAL	CALLE LUIS MARIN 8	026 A
	19/11/92 3:36	18-00	SERVICIOS EN GENERAL	[illegible] DE VALLECAS 04-18	026 C

[illegible] : MAXIMO GUTIERREZ PALOMARES (Alerta.) : EL MISMO (Tel.) : 7771693

[illegible] : D.G.P.J. : G.C.L. : JUD.G. : G.CIVIL : P.MUNICIP : BOMBEROS :
[illegible] : E.D.E. : C.R.C. : C.[illegible] : C.[illegible] : G.[illegible] :

[illegible] : (19/11/92 02:01) Z1-02 Z0-02

: ... A LAS 02.00 HORAS, LLAMA A ESTA SALA QUIEN DICE LLAMARSE MAXIMO GUTIERREZ DESDE EL TELEFONO 7.77.16.93 EL CUAL MANIFIESTA QUE, HACE UN AÑO MURIO EN CIRCUNSTANCIAS EXTRAÑAS UNA HIJA SUYA Y QUE, A PARTIR DE ENTONCES, HAN TENIDO FENOMENOS PARASICOLOGICOS EN EL INTERIOR DE LA CASA, HABIENDO TOMADO PARTE VARIOS ESPECIALISTAS EN ESTA MATERIA. PUES BIEN, DESPUES DE ESTE PROLOGO PASO A EXPLICAR LO QUE EL CITADO SEÑOR ME COMUNICO:

... EN EL DIA DE HOY Y, DESDE HACE VARIAS HORAS, ESTAN NOTANDO FENOMENOS EXTRAÑOS EN LA CASA, TALES COMO QUE UNA FUERZA EXTRAÑA MUEVE LOS ENSERES DE LA MISMA PONIENDO LOS CRUCIFIJOS BOCA ABAJO Y CON GRAN TURBULENCIA PRODUCIENDOSE EN UN POSTER QUE TIENEN ADHERIDO A LA PARED TRES GRANDES ARAÑAZOS.

... COMO QUIERA QUE EL QUE SUSCRIBE, NO DABA CREDITO A LO QUE ESTABA ESCUCHANDO, EN UNA PRIMERA INSTANCIA CREIA HABLAR CON UNA PERSONA INFLUIDA POR ALGUN TIPO DE BEBIDA O PSICOFARMACO, POR LO QUE SOLICITO EL QUE SE PUSIERA LA ESPOSA DEL MENCIONADO, CONTRASTANDO Y RATIFICANDOSE EN LAS AFIRMACIONES DE SU MARIDO. QUE AUN ASI, SEGUIA SIN PODER CREER ALGO QUE, POR EL MOMENTO, SOLO ES CUESTION DE CIENCIA FICCION, PERO ANTE EL REVUELO QUE EN DICHO HOGAR SE ESCUCHABA, SOLICITO EL QUE SUSCRIBE HABLAR CON UNO DE LOS HIJOS CONCRETAMENTE UN VARON DE 17 AÑOS, QUIEN NADA MAS ATENDER EL TELEFONO, SE RATIFICO DE LA MISMA MANERA QUE SUS PADRES, NO OBSTANTE SOLICITE HABLAR CON OTRO MIEMBRO DE LA FAMILIA QUIEN ME COMUNICO QUE, EFECTIVAMENTE, TODO LO EXPUESTO ERA CIERTO Y PARA MAS DETALLE, QUE DICHOS FENOMENOS LOS SUFREN DE VEZ EN CUANDO PERO QUE ESTA NOCHE, SEGUN SIGUE INFORMANDO, ESTAN MUY VIOLENTOS, POR LO QUE DICHO HOGAR ES PRESA DEL PANICO.

... ANTE ESTA CIRCUNSTANCIA Y CON EL AFAN DE PROTEGER Y AUXILIAR A ESTA FAMILIA SE ENVIA AL LUGAR UN ZETA CON EL OBJETO DE QUE SE ENTREVISTE Y OBSERVE SI SE PRODUCEN ESTOS FENOMENOS.-

... A LAS 02.40 HORAS, POR EL CANAL - 7 DE H-20 LLAMA EL Z-2 Y MANIFIESTA QUE, UNA VEZ QUE SE HA ENTREVISTADO CON LA FAMILIA Y HA OBSERVADO EL INTERIOR DE LA CASA, SEGUN COMUNICA, SE LE HA PUESTO EL VELLO DE PUNTA.......... Y QUE POSTERIORMENTE LLAMARIA POR TELEFONO.-

... A LAS 03.00 HORAS, LLAMA EL Z-0, JEFE DE LA ZONA Y ME COMUNICA LO QUE SIGUE:

... QUE SE TRATA DE UN MATRIMONIO CON CINCO HIJOS, A LOS CUALES LES FALLECIO HACE UN AÑO UNA HIJA EN CIRCUNSTANCIAS EXTRAÑAS, LA CUAL PADECIA ATAQUES DE EPILEPSIA, SEGUN LA OPINION DE EXPERTOS EN MEDICINA, BASTANTE RAROS, DADO QUE LA FORMA DE PRODUCIRSE, NO RESPONDIAN EN SU TOTALIDAD A LA PSICOPATOLOGIA QUE DICHA JOVEN SUFRIA, ASI COMO QUE CUANDO SE PRODUCIA DICHO ATAQUE, LA CHICA BALBUCEABA Y ENTABLABA CONVERSACION CON UN SER DENOMINADO AL QUE, EXPERTOS EN PARASICOLOGIA, DENOMINAN -CRAPULA-.-

مطَّ شفتَيه كالعادة والتقط نَفَسًا عميقًا قبل أن يضع الملفَّ بمُحتوياته جانبًا ويمدَّ يدَه ليُعيد تشغيل الجرامافون ويتعالى صوتُ الرجل مرّةً أُخرى متابعًا ...

***

مرّت سبعة أشهر على جلسة التحضير ...

أغسطس، في المنزل رقم 8 في شارع (جيراردو نونييز) المُسمّى على اسم لاعب الجيتار الإسباني الشهير، حيثُ شقة (إستيفانيا) الكبيرة التي تعيش فيها مع والِدها (ماكسميو) ووالدتها (كونسيبثيون) وأخواتها البنات (لوسيا) و(آيرين) والأخ الأصغر (أنطونيتو)، والليلة ...!

الليلة مُختلفة عن جميع الليالي السابقة ...

ففي هذه الليلة ستسمع (كونسيبثيون) الأم ضوضاءً وأصواتًا غريبةً في الحمَّام، ستتعجَّب وترتبِك، لا يوجد سبب معين، (ماكسيمو) بجانبها والأطفال نائمون في غُرَفهم، فستذهب لتتفقّد السبب لتجد (إستيفانيا) المسكينة مُلقاةً على أرضية الحمَّام، تنتفِض وتصرُخ في ألَم، دقائق وستنتقِل للمُستشفى حيث ستموت غدًا مساءً، وبدون أي سببٍ مفهوم أو واضح.

سأوفِّر عليك العويل والصُّراخ وسأحتفِظ بحقيقةِ ما حدث لثوانٍ معدودة، فقط لننتقل بالزمن قليلًا إلى الأمام، تحديدًا بعد سنةٍ من الآن.

يومٌ ما من نوفمبر 1992، أربعون دقيقة بعد الثانية صباحًا ...

أنا في نفس المكان، شقّة (إستيفانيا) بعد عامٍ كامل من وفاتها، أختبئ في ممرٍّ داخلي بينما والداها (ماكسيمو) و(كونسيبثيون) يقفان بالخارج أمام الباب في انتظار سيارة الشُّرطة التي تقلُّ المُفتّش (خوسيه نيجري) في طريقِه إلى هُنا بعد أن طلباه منذُ قليل، وشكواهم ستكون أنَّهم يُعانون من أصوات ضوضاء وطرَقَاتٍ

عالية على الأثاث وأبواب الخزانات تُفتَح وتُغلَق بعُنفٍ وحدَها، بالطبع سيكون تفسيرُه أن هناك دخيلًا ما بالمنزل، وسيطلُب منهم تفتيش المنزل، ولكن الأم ستُخبِره أن الأمر لا يستدعي تفتيشًا، فهي تعرف السبب ...

إمممم ثواني، أسمع أصواتًا بالخارج ...

نعم، لقد وصل المُفتِّش ...

سأختبئ وراء أحد هذه الأبواب المُغلقة، قريبًا منهم لأسمع وأُطابِقه بما سأحكي هُنا، وألاحظُ أنّ المكان هُنا بارد قليلًا على عكس العادة ولكن لا يُهم ...

وها هي تبدأ الحكاية ...

تُخبره أنَّ من بعد يوم الكسوف في يناير، أي نفس يوم جلسة التحضير إيَّاها، ولم تعُد الأمور كما كانت، تغيَّرت (إستيفانيا) وصارت أكثر انطفاءً، نوبات صرَع بدون تاريخٍ مرَضي أخذت تُهاجمها، صُراخ في إخوتها الصِّغار على أتفه الأسباب، شِجار مع أيِّ أحدٍ بدون أيِّ أسبابٍ تُذكَر، نومٌ مُتقطع وإذا نامت تصحو صارخةً من كوابيس وأحلام مُرعبة، بل وامتدَّ الأمر للشقة نفسها، فأصبحت الأنوار ترتعِش وحدَها وخاصةً في وجود (إستيفانيا)، همسات مُخيفة تُسمَع في أنحاء المنزل بدون وجود أحدٍ وبالتحديد في الأماكن المُظلِمة منه ...

مهلًا، هذا جُزء لم أعرِفه من قبل ...

تقول إنَّهم بدءوا في مُلاحظة أشكالٍ ضبابية لأشخاصٍ يحومون

في أرجاء الشقة وتزحَف على الجُدران، بل إن الموضوع تطوَّر لأن أحدَهم دفع (أنطونيتو) الصغير ليسقُط على وجهه في عُنف، والآخر حاول أن يخنقها هي نفسها أثناء نومِها، وأخيرًا — ولعمري هي الأكثر رُعبًا — صوت (إستيفانيا) وهي تُنادي على أُمِّها من داخل الحمام، (إستيفانيا) التي ماتت منذُ عامٍ كامل، وعندما يتفقدون الحمَّام – بالطبع – لا شيء هُناك، وإن شِئنا الدقة يجدون المفارش والشراشف وجميع مُحتويات الحمام تندفع في وجوههم، والأواني والكئوس تتحطَّم وحدَها بدون سبب ...!

أسمع المُفتّش (خوسيه) الآن يُبدي استنكارَه وعدم تصديقه لأيٍّ ممّا سمِع، وله عُذره بالتأكيد، ولذلك سيطلُب منها أن يتفقَّد الشقة بنفسه، وسيبدأ بغُرفة (إستيفانيا)، أنا لا أدري أين أنا الآن ولكنّي مُتأكّد أنّها ليست الغُرفة المَعنية، وما لا يعرفه المُفتّش (خوسيه) أنّه سيمُر بتجرِبة لم يمُر بها من قبل في حياته، ستُغيّر من مفاهيم كثيرة في مُعتقداته، فما هو على وشك رؤيته، مُخيف بالفعل ...

عُذرًا لصوتي المُنخفِض فلا أودُّ أن أكشِف وجودي ...

فور دخول المُفتّش لغُرفة (إستيفانيا) سيُفاجأ بأصوات طرقاتٍ عالية مُخيفة بدون مصدرٍ واضح، تصحبُها أصواتٌ وكأنها أحجارٌ ضخمة يتمُ دحرجتها على الأرض، مع أصواتٍ لأحجارٍ أُخرى وكأنّها تُلقى بعُنف، سيُثير الأمر رهبتَه هو ورُفقائه من الشُّرطة، سيبحثون في أنحاء الغُرفة بدون جدوى و ...

***

ارتفع صوت ارتطام من بعيدٍ وصُراخ رجلَين أو أكثر ...

***

آه، كُنت قد نسيتُ هذا الجُزء، فهُنا باب الغُرفة انفصل عن مفصلاته وطار في اتّجاه المُفتّش (خوسيه) وكاد أن يُردِيه قتيلًا لولا أن نبَّهه أحدُهم قبلها بثوانٍ، وهذه هي اللحظة الفاصلة في مدى تصديقهم من عدمِه، فمن بعدِ حادثة باب الغُرفة الطائر سيقتنعون أن ما يحدُث في شقة آل (لازار) هو شيءٌ خارقٌ للطبيعة وليس بفعل فاعلٍ بشري كما هو المتوقَّع والمُعتاد.

سيرتعِب البعض وسيخرجون من الشقة لينتظروا بالممرِّ الخارجي، بينما يُكمِل المُفتّش (خوسيه) مع الباقين حيث سيجدون مادةً ما هُلامية القوام على الأثاث لن يدروا ما مصدرُها ولا ماهيَّتُها، ومن خبراتي أنا سأُخمِّن كُنهها إنها (إكتوبلازم) ...

والـ (إكتوبلازم) هو مُصطلح يستخدِمه المُهتمُّون بالوساطة الرُّوحانية للتعبير عن إفرازاتٍ تخرج من جسد الوسيط الروحاني أثناء جلسة التحضير أو أحيانًا تتكوَّن في جوِّ الغُرفة حيثُ الجلسة، ومن المُفترَض أنها تُمثِّل الطبقةَ الخارجية التي تُغطِّي الكيانات غير المرئية لدى تجسُّدها في كوننا المرئي، ومن اسمِها (إكتو) تعني (خارجي) و(بلازم) تعني (مُتشكِّل) باليونانية، وفي بعض الأحيان يتم ترجمتُها إلى (الجِبلّة الخارجية).

أو على الأقل هذا ما يتَّفق عليه المهتمُّون بهذا المجال ...

المُهم، ستتعالى أصوات الطرقات مرّةً أُخرى في عُنفٍ أكثر ...

سينخلِع الصليب الخشبي الصُّلب من مكانه على الحائط ويُقذَف بعُنفٍ على الأرض، هذا الصليب بالذات ستذكُر الأم أنّه لا ينفكُّ يسقط وحدَه مهما ثبّتوه بقوّة ... بالإضافة لسقوط جميع اللوحات والصور الفوتوغرافية المُعلّقة على الجُدران والمسامير التي تحمِلها سيجدونها أنصافًا أو مُلتويةً بقوة خارقة وكأن من لَوَاها يملِك أصابعَ من فولاذ، كل هذا غير صورة (إستيفانيا) على الكومود الجانبي ستقع وحدَها أمام أعيُنهم ليحترق وجهها فقط بينما يظلُّ باقي الإطار سليمًا بدون أي أثرٍ للاحتراق ...!

***

رفع (يوسف) الصورة المُحترقة لينظُر إليها مرّةً أُخرى في وجومٍ بينما يُتابع الرجُل ...

***

بآخِر ذرّةِ شجاعةٍ في جسده سيُعلن المُفتّش (خوسيه) يأسَه من إيجاد تفسيرٍ منطقي مُقنع، وأنّهم قد فشلوا في معرفة السبب، ولكن الأم هُنا ستطلُب منهم رؤية الحمّام في محاولةٍ أخيرة للمُساعدة، والحمّام هو حيث وجدت (إستيفانيا) قبل موتها، ولم يستخدِموه من وقتِها، بل أغلقوه تمامًا وصار أقرب لغُرفة غسيلٍ وتخزين، بالطبع سيوافق على امتعاضٍ وفور دخوله سيشعُر بانخفاضٍ حادٍّ في درجة الحرارة وبحضورٍ قوي في المكان، وستكون هذه هي القشّة التي قصمت ظهر البعير ...

سيعود أدراجه إلى قسم الشُّرطة مع باقي القوة الأمنية بدون أي

مُساعدةٍ تُذكَر للأُسرة المنكوبة، لا شيء في إمكانهم تقديمه، وعليها ستتوقَّف الظواهر الغريبة ومَن سيسكُن بعدَهم لن يشكو من أي شيء، ومن هُنا ستُصبح القضية حديثَ الساعة والموضوع سينتشِر في كلِّ مكانٍ وستتسرَّب صور التحقيقات، وخاصةً بعد أن يُذكَر الأمر وبكل وضوح في تقرير الشُّرطة الرسمي ليكون أول تقريرٍ موثَّق من قِبل جهةٍ رسمية يذكر حدوث ظواهر خارقة للطبيعة بدون أي تفسيرٍ واضح، لدرجة أن الأمر سيصل للصحافة وسيصدُر عنه العديدُ من الروايات والأفلام أشهرها فيلم في زماننا من إنتاج نتفليكس يُدعى Veronica ..

آه، ها هو صوت المُفتّش يقترب مع الأم ليتفقّد الحمَّام و ... مهلًا ...

لِمَ يتَّجِهون نحوي ...؟!

هذه البرودة ...!

يا إلهي ...!

كل هذا الوقت وأنا في الحمـ ...!

***

انقطع صوت الرجل فجأةً وارتفعت أصوات همساتٍ مُخيفة وطرقات عالية قبل أن يستولي صمتٌ مُقبِّضٌ على جنبات الغُرفة، في حين استمرَّ (يوسف) على وجومِه لثوانٍ مُحدّقًا في الجرامافون والملف في يدِه والأفكار تعتمِر برأسه في قوّة.

كان الأمر مُخيفًا كعادة أغلب التسجيلات، وللمرَّة الثانية حمد الله

أن (إيمان) لم تكُن موجودة.

سحب حقيبته الصغيرة من على الطاولة وأخرج منها اللابتوب الخاص به وأوصله بالإنترنت عن طريق شريحة البيانات عبر منفذ الـ USB وأخذ يبحث عن الموضوع أكثر وأكثر، ومع كل موقعٍ وكل رابط يجِده يتأكّد أن الأمر حقيقي بكل تفصيلةٍ ذكرها الرجل في حديثه ولـ ...

قطع حبل أفكاره طرقاتٌ على باب الغُرفة فانتفض في مكانه وقد اندفع الأدرينالين في عروقِه حدَّ الذروة من فرط المُفاجأة...!

لا أحد يعرف أنّه هُنا ... وبالتأكيد لن تكون (إيمان)، الحالة التي كانت عليها تشي باستحالة عودتها وكانت ستكتفي باتصالٍ فقط، وقبل أن تقتله السيناريوهات التي رسمَها في خياله، ارتفع صوت (سامي) من وراء الباب وهو يُنادي في ضجر:

– يا (يوسف)، أنا (سامي)، أخبرَتْني (إيمان) أنّك هُنا ...

وهُنا فقط زفر (يوسف) زفرةً قويّة وهو يتنفَّس الصعداء مُجيبًا بصوتٍ عالٍ وهو يتّجه نحو الباب:

– حسنًا أيّها الأحمق، كدتَ أن تُصيبني بسكتةٍ قلبية ...

أنهى جُملته وهو يفتح الباب و(سامي) يدلف وهو يتساءل عن سبب السُّباب الذي طاله بدون ذنب، في حين أغلق (يوسف) الباب خلفَه وهو يعود إلى مكانه بسُرعة ...

– ما قصّة هذه التسجيلات التي تشغلك لهذه الدرجة ...؟ أعطتني

(إيمان) فكرةً عامة على الهاتف ولكن دون أيٍّ تفاصيل ...

اندفع (يوسف) يحكي في لهفةٍ كل شيء من بداية عثوره على الغُرفة وحتّى لحظة دخول (سامي) لها، و(سامي) يُنصت إليه في اهتمامٍ ويُلقي نظراتٍ عابرة كل حينٍ وآخر إلى الجرامافون والأسطوانات قبل أن يسأله بنفس الاهتمام:

– ومَن هذا الشخص بالضبط ...؟ أعني هل نعرف مَن هو ...؟

– إمممم، الحقيقة، لا ... لم يقُل اسمه حتّى الآن، ولا أدري كيف يقوم بهذه الرحلات من الأساس.

– همممم، وما يضمَن لنا أنَّ هذا كلّه حقيقي إذًا ...؟

وهُنا أدار (يوسف) شاشة اللابتوب نحوه وهو يُجيب بحماس:

– كل تفصيلةٍ ذُكِرت في التسجيلات حقيقية، على الأقل حتَّى الآن.

سحب (سامي) اللابتوب نحوَه ليرى أفضل في حين تابع (يوسف):

– هاك، قائمة بمصادر آخِر تسجيلات استمعتُ إليها، تأكَّدتُ منهم بنفسي.

وأمام أعيُن (سامي) المُهتمَّتَين تراصّت قائمة من المصادر أعدّها (يوسف) أثناء تَحقُّقِه من التسجيلات ...

***

أبيجايل ويليامز

https://historyofmassachusetts.org/abigail-williams-salem/

https://salemwitchmuseum.com/locations/john-proctor-house/

The Crucible - Arthur Miller

The Heretic's Daughter - Kathleen Kent

The Witches: Salem, 1692 - Stacy Schiff

الكويكب الذي أنقذ (لوط)

https://astronomy.swin.edu.au/cosmos/a/aten+asteroids

https://phys.org/news/2008-03-cuneiform-clay-tablet.html

https://www.universetoday.com/13560/evidence-of-asteroid-impact-for-sodom-and-gomorrah/

لُغز المرأة السامة

https://www.gasdetection.com/MDS/m092198.html

https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/9248041/

https://www.discovermagazine.com/health/analysis-of-a-toxic-death

https://www.ranker.com/list/gloria-ramirez-case/erin-wisti

https://www.imdb.com/title/tt0948266/

شياطين (إستيفانيا لازار)

https://www.atticvoices.com/2019/estefania-gutierrez-lazaro

https://www.thesun.co.uk/tv/5708131/estefania-gutierrez-lazaro-death-veronica/

https://auralcrave.com/en/2019/10/27/the-vallecas-case-the-true-story-behind-veronica-movie/

https://vocal.media/horror/terrifying-true-story-of-estefania-gutierrez-lazaro-veronica

https://www.smithsonianmag.com/history/the-strange-and-mysterious-history-of-the-ouija-board-5860627/

https://www.imdb.com/title/tt5862312

***

انتهى (سامي) من تفقُّد القائمة وأعاد اللابتوب ليواجِه (يوسف) بعد أنْ تأكّد بنفسه من عدة روابط عشوائية فوجدَها تحكي مواضيعَ بجدِّيةٍ تامّة، وإن لم يكُن لدَيه طرف أول ليُطابق به ما قرأه فهو لم يستمِع للأسطوانات هو الآخر، ولكن الأمر يبدو حقيقيًا كفاية بالفعل.

– حسنًا، يبدو الأمرُ مُثيرًا نعم ولكن، ألم يخطُر ببالك أنَّها تسجيلات مُفبركة ...؟

عقد (يوسف) حاجبَيه وهو يسحب اللابتوب نحوَه مُتسائلًا:

– مُفبركة ...؟ بمعنى ...؟

– بمعنى أنه ... نعَم، الأحداث حقيقية ومَبنية على مصادر تاريخية ولكن، لِمَ لا يكون كل هذا مجرّد تمثيلية، تسجيلات في استوديو بمؤثّرات صوتية وأشياء من هذا القبيل؟ أنت تعرف أنَّ هذه الأيام يُمكن لأي طفلٍ بأدنى درجات الدراية بالتكنولوجيا أن يقوم بشيءٍ مُماثلٍ دون أي مجهودٍ يُذكر ...

قالَها وهو يهُزُّ كتفَيه في حياد، فمال عليه (يوسف) وهو يُجيب بهدوء:

– هذا غير مُمكن لعدّة أسباب يا صديقي، أولها طبيعة التسجيلات نفسها، كم شخص مرَّ عليك يُسجّل على أسطوانات جرامافون حجرية؟ ليست حتّى أسطوانات بيك-أب والتي تكون عادةً بلاستيكية، بل أنا نفسي لا أعرف الكيفية حتّى الآن ... ثانيًا، أنا أول شخصٍ يدخُل هذه الغُرفة من عشرات السنين، ألم ترَ حالة الفيلّا نفسها ...؟ ما بالك بحالة الغُرفة التي تراكمت فيها أطنان من الأتربة

تشي بهُجرانها وافتقادها للّمسةِ البشرية وبالتالي فهذه التسجيلات هُنا منذُ زمنٍ طويل قبل ظهور أيٍّ من وسائل التكنولوچيا الحالية ...

همَّ (سامي) أن يقول شيئًا ما، ولكن إشارة من أصبع (يوسف) أوقفته وهو يُتابع:

– وأخيرًا والأهم، أنّي قُمت بقليلٍ من البحث عن تاريخ الڤيلّا وصاحِبها ...

التمعَت نظرة اهتمامٍ في أعيُن (سامي) بينما صمت (يوسف) للحظةٍ قبل أن يستطرد بلهجةٍ درامية وهو يميل نحوه:

– لا شيء ...

عقد (سامي) حاجبَيه وهو يسأله:

– لا شيء ...؟ ماذا تعني لا شيء ...؟

هز (يوسف) كتفَيه وهو يعتدِل مرّةً أُخرى مُجيبًا:

– أعنيها كما فهمتَها، لا شيء، لا يوجَد أي معلوماتٍ مُتاحة، الڤيلا مبنية في الثلاثينيات من تصميم مُهندس إيطالي ربّما لتكون مقرًّا لأحد أعيان الفترة، لم أستطع الوصول لاسمه، ما استطعت الوصول إليه أنّها مُسجّلة باسم شخصٍ ما أجنبي يُدعى (فينسينت ميللر) امتلَكَها مُدة الأربعين عامًا الأخيرة وبعد وفاته بدأت شركة المُحاماة الخاصة به في توزيع تركته، فعُرِضت هذه الڤيلا للبيع لتقسيم ثمنِها على ورثتِه، وهُنا جاء دور (بدر) السمسار الذي استطاع أن يأخذ توكيل البيع من الشركة وأنت تعرف باقي القصة ...

– ولكن، التسجيلات بصوتٍ عربي بل ومصري، فكيف ...؟ هل تعود التسجيلات لشخصٍ آخَر غير مالك الفيلّا الأصلي، أم أن (ميللر) هذا هو اسمٌ مُستعار، أم ...

دفع (يوسف) صندوق التسجيلات نحوَه وهو يُقاطِعه قائلًا:

– ليس لديَّ أدنى فكرة، ربَّما نجد الإجابة في أحد التسجيلات، أليس كذلك ...؟

ألقى (سامي) نظرةً طويلة على مُحتويات الصندوق، ثم تفقَّد ساعته ليجِدها لا تزال الثانية والنصف، وباقي اليوم خالٍ من الأنشطة، فكان الأمرُ مُغريًا بالنسبة له، وما شجَّعه أكثر هو الأسطوانة التي ظهر اسمُها واضحًا إثر دفعة (يوسف) للصندوق نحوَه، عنوان ذكَّره بأفلام الـ Slasher الأمريكية التي تُعتبر فئةً فرعية من أفلام الرُّعب الدموي، من عينة Texas Chainsaw Massacre وWrong Turn وغيرهما ...

فسحبَها من الصندوق وناولها لـ (يوسف) في استسلامٍ كي يتولّى أمر تشغيلها، فالتقَطَها منه وفضَّها سريعًا وهو يُلقي نظرةً على العنوان هو الآخَر قبل أن يمُطّ شفتَيه في رضًا واضحٍ ثم يبحث عن الملفّ المُناسِب لها ويُناوله لـ (سامي) وهو يضع الأسطوانة مكانها على محور الجرامافون ويُدير الذراع ويعود مكانه ...

ثوانٍ وارتفع صوت الرجل الرخيم وهو يحكي ...

ماذا حدث في مزرعة (هينتركايفك)؟ 1921

أودَّ أن أعترِف أنِّي أخاف من الألمان ...

خوفٌ مُبهَم، لا أدري سببَه ...

ربّما لكونهم شعبًا باردًا، أشبَهَ بآلاتهم، بل هم آلاتٌ بأسماء ...

ناهيك عن الخلفية التاريخية الوحشية عنهم أثناء الحرب العالمية والتي يشيبُ لهولها الولدان، لذلك كُنتُ دائمَ التردُّد للسعي وراء هذه القصّة، ولكن لا مفرَّ لأهميتها في تاريخنا المُعاصر.

المُهم أنِّي الآن على بُعد حوالي 70 كيلومترًا شمال مدينة (ميونخ) الألمانية ...

يومٌ ما من سبتمبر 1921 ...

أنا هُنا في هذا التاريخ من أجل مشهدٍ واحد فقط وددتُ أن أحضُره بنفسي كشاهد عيان، ولأنقل لك المشهد كاملًا، فأنا الآن أقف على بُعد أمتارٍ قليلة من مبنَيين صغيرَين، جُزء من مزرعة ريفية قديمة بُنِيَت قُربَ العام 1863 تُدعى مزرعة (هينتركايفك – Hinterkaifeck Farm) وهُنا تحضرني رُوح المُعلِّم لأقول إنّها Farm وليست Ranch، حيث إن الـ Farm تشمل كُلًّا من زراعة المحاصيل بأنواعها ورعاية الحيوانات بأشكالها المُختلفة، بينما Ranch تُعنى فقط برعاية الحيوانات فبالتالي تكون جُزءًا من الـ Farm أي أن كل Farm هي Ranch وليس العكس و...

حسنٌ، لن أستطرد أكثر من هذا ...

كُنت أقول إنّ هذه المزرعة ليست موجودة في عصرنا، تم هدمُها في مرحلةٍ ما مِن بعد التاريخ الحالي بما يقرُب من السنة وإقامة ضريحٍ مكانها، ولكن حاليًا يعيش فيها ستة أفراد، وعلى بُعدٍ أرى أكبرهم، رجلًا عجوزًا يُدعى (أندرياس جروبر) ...

ولا تنس أن تُبدِّل حرف الراء بحرف الغين كعادة الألمان لتصِل للنُّطق الصحيح فيُصبِح (أندغياس جغوبغ)، وهو ربُّ الأسرة ذو الستة والثلاثين عامًا يقِف بجانب زوجته (كازيليا) ذات الاثنَين والسبعين عامًا، بالإضافة إلى (فيكتوريا) ابنتِهم المُطلَّقة ذات الخمسة والثلاثين عامًا والتي تعيش معهم مع أولادها الصغيرة (كازيليا) – على اسم الجدّة – بأعوامِها السبعة و(جوزيف) الصغير، عامَين فقط، أمَّا الفرد الأخير فهي خادمة العائلة ...

وهي الآن تقف مع (أندرياس) و(كازيليا) الكبيرة يتحدَّثون جميعًا في خفوت ...

أقترِب منهم أكثر ببُطءٍ وحذَر ...

بغضِّ النظر عن صعوبة الألمانية عمومًا وألمانية هذه الفترة وهذه المنطقة تحديدًا، إلَّا أنّي – وكعادة رحلاتي – أستطيع أن أفهم وأتحدَّث لُغة أيِّ مكانٍ أزوره، فبالتالي أنا أفهم ما سيُقال وإن كُنتُ أعرفه بالفعل، ولكن كما يُقال (زيادة الخير خيرين)، ومن مكاني هذا أستطيع أن ألتقط ما يُقال، وأُدرك أن الخادمة ليست على ما يُرام، تُخبِرهم برغبتها في الرحيل حالًا.

تشتكي من أصوات خطواتٍ تتبعُها في كل مكانٍ أثناء عملِها في المزرعة، وكلما تستدير لتُلقي نظرة، تجد أنَّها وحدَها في المكان ولا أحد هُناك، هذا غير مُستلزمات المكان التي تجِدها في غير أماكنها، توتُّر بعض الحيوانات أغلب الأوقات، وأشياء أُخرى من هذا القبيل، المُهم أنّها سترحل بالفعل وستظلُّ المزرعة بدون خادمة لمدَّة ستّة أشهر كاملة عندما ستقبَل الوظيفة مَن تُدعى (ماري بومجارتنر) ذات الأربعة والأربعين عامًا لتكون هي الخادمة الجديدة.

وهذا هو جلُّ ما أُريد من هذا التاريخ، والآن إلى النُّقطة التالية ...

***

ارتفع صوت كأنَّه تفريغُ هواء واختفى صوت الرجل لثوانٍ، فألقى (يوسف) نظرةً سريعة على (سامي) بجانب عينِه ليجده يستمع باهتمامٍ يختلط بقدرٍ ليس بقليل من الاندهاش، فارتسمت ابتسامةُ زهوٍ سريعة على شفتَيه قبل أن يعود لإنصاته للرجل وهو يُتابع حكايته ...

***

مرّت ستَّة أشهُر على المُحادثة إيّاها، وأنا الآن في الأسبوع الأخير من مارس 1922 ...

أقف الآن خلف شجرةٍ ضخمة في نفس المكان، وأمامي (أندرياس) يقف مع جارٍ له يُخبره أنّه عثر على آثار أقدامٍ غريبة مطبوعة على الثلوج، مصدرها الغابة القريبة وتنتهي إلى مزرعته وتحديدًا نحو غُرفة الماكينات، في اتِّجاهٍ واحد فقط، أي أن صاحِبها

دخل المزرعة ولم يخرُج منها وعندما فتَّش المكان جيدًا لم يجِد أي أثرٍ لدخيل، ومن وقتِها وهو يسمع أصواتَ خطواتٍ في العلِّية فوقه، وعندما يصعد إليها لتفتيشها يجِدها أيضًا خالية، وامتدّ الأمر لاختفاء مفاتيح المزرعة من مكانها وعثوره على قطعةٍ من جريدةٍ غريبة لم يَقُم أحدٌ من الأُسرة بشرائها ...

أسمَعُه يُخبِره أنّه أخيرًا يُصدِّق الخادمة السابقة ...

***

ارتفع صوت تفريغ الهواء مرّةً أُخرى، وهمّ (سامي) أن يقول شيئًا ما لولا أن رفع (يوسف) أصبعه أمام شفتَيه علامة الصمت، وهو يسحَب من الملفِّ عدّة صور بالأبيض والأسود وناولها إلى (سامي) الذي أذعن لإشارة (يوسف) وأخذ يتطلّع في الصور التي كانت كلُّها مُقبضة وغريبة ...



أول صورة مكتوب تحتها (مزرعة هينتركايفك بعد 5 أيام من اليوم الموعود) وتُمثل المزرعة وهي خالية بلا أثَرٍ لمخلوقٍ في إطار الصورة ...

مع صورةٍ أُخرى ظهر فيها أفراد الأُسرة وهم يُواجهون الكاميرا في غياب (كازيليا) الصغيرة ...



أمّا الصورة قبل الأخيرة فلم تكُن واضحة المَعالم وإن بدَت وكأنَّها جُثة لشخصٍ ما مُلقًى بإهمال وسط كومةٍ من القش في حظيرةٍ قديمة من الطوب الأحمر ...

وأخيرًا صورة لِمعول من النوع المُستخدَم في تقليب الأرض في المزارع ...



غرق (سامي) في تفقُّد تفاصيل الصور بتركيزٍ بالغٍ حتّى أفاقه

الرجل بصوته وهو يُتابع حكايته مرّةً أُخرى فوضع الصور جانبًا وأنصت له وهو يقول ...

***

الإثنين الثالث من أبريل ...

كانت (ماريا) الخادمة مع أُسرتها بعيدًا عن المزرعة ولكنَّها عادت يوم 31 مارس ظُهرًا مع أُختها التي تولّت مهمة توصيلها ثُم شاركتها المجلس قليلًا في المزرعة قبل أن تمضي في طريقها، أمّا في اليوم التالي فسيمُر بائعا القهوة (هانز) و(إدوارد شيروفسكي) لعرض بضائعهما ولكن لا أحد سيستجيب لطرقاتهما على الأبواب، ولن يرَيا أيَّ أحد في الأنحاء، فسيرحلان من توِّهما، حتّى (كايزيليا) الصغيرة لم تذهب إلى مدرستها منذ يومَين وساعي البريد لاحظ أكوام الخطابات كما هي أمام صندوقهم ...

أصبح الأمرُ مُقلقًا إلى حدٍّ ما ...

غدًا سيأتي الميكانيكي (ألبرت هوفنر) ليُصلح موتور ماكينةٍ ما معطوبة كما تم إخباره من قبلها، سيذكُر بعدها أنّه لم يرَ أحدًا من سكّان المزرعة وسينتظر ساعة كاملة دون جدوى، قبل أن يشرع في إصلاح الموتور منعًا لتضييع الوقت، وستستغرق منه هذه العملية قُرابة الأربع ساعات ونصف قبل أن يرحل دون أن يسمَع أيَّ صوتٍ يصدُر من الأُسرة، فقط أصوات الحيوانات والكلاب.

بعدها، وقُرب الساعة الثالثة والنصف عصرًا سيُرسل الجار (لورينز شليتنباور) ابنه المُراهق (يوهان) مع قريبه (چوزيف) ليطمئنّا على

أحوال الأُسرة، وأيضًا لن يرَيا أحدًا في الأنحاء وسينقلان الخبر إلى (لورينز) الذي سيتَّجه بعدَه برفقة (مايكل بول) و(چايكوب سيجل) إلى هُنا للتحقُّق من هذا الأمر الغريب.

وعند وصولهم سيجدون ما أنا بصدد توثيقه الآن، في المبنى الثاني، مبنى الحظيرة، أقفُ مُرتديًا قناعًا على أنفي، فالرائحة هُنا لا تُطاق، لماذا ...؟

لأن الأُسرة مقتولة هُنا شرَّ قتلة، ظننتُ هذا مفهومًا ...

(أندرياس) و(كازيليا) و(فيكتوريا) و(كازيليا) الصغيرة ...

جميعهم مقتولون ومُمزّقون شرَّ تمزيق، ولا يُوجَد بجسدِهم قطعة واحدة سليمة، الدماء في كل مكان وآثار جرٍّ على الأرض تشِي بأنّ مَن ارتكب هذه الفاجعة كان قد استفرد بهم واحدًا تلوَ الآخر وسحبَهم لهذه الحظيرة ليقوم بهذا الفعل الشنيع على راحتِه ها هُنا، (كازيليا) الصغيرة المسكينة فقط مَن ستظلُّ على قيد الحياة بعدَها لعدَّة ساعات تُمزِّق في شعر رأسها من الخوف والألَم، أو هذا ما سيُعتقَد أنَّه سيحدُث نظرًا لأنهم سيجدون أجزاءً من شعرها بين أصابِعها ورُقَعًا صلعاء في رأسها دلالةً على مُعاناتها وحدَها وسط جُثث أُسرتها، قبل أن يفشل جسدها الصغير الضعيف في المقاومة لتلحق بباقي أُسرتها المساكين ...

وعند فتح باب التحقيقات بعد يومَين من الآن سنعرف أن سلاح الجريمة هو مِعول يُستخدَم في تقليب الأرض في المزارع، أشبَه بفأسٍ له طرف حادٌّ مُدبَّب، ولن يعثروا عليه في أي مكانٍ إلَّا بعد عامٍ

من الآن بعد أن تُهدَم المزرعة بالكامل، سيكون في العلية بالأعلى مُخبَّأ وسط الصناديق القديمة ...

أتّجه نحو غُرفة (ماريا) الآن ...

نفس البشاعة ...

دماء في كل مكان، والخادمة المسكينة مُمزَّقة في سريرها، لم تجد الفرصة حتّى لتصرُخ، أخرج منها مُتَّجِهًا نحو غُرفة الصبيّ بالطابق العلوي ...

نفس الفظاعة ...

الصبي مُمزَّق في سريره بدون رحمة، وذلك يتركك لتتساءل، مَن منزوع القلب يتأتّى له فعلُ ذلك ...؟ أطفال ونساء ...!

وسيعثُر فريق التحقيق على كومةٍ من الأموال في المكان، إذًا فكل هذا ليس بغرَض السرقة أيضًا، وهذا ما سيُثير جنون كلِّ مَن سيسمع بهذه الجريمة ...

لا أستطيع أن أتحمَّل الرائحة أكثر من هذا، بالرغم من القناع، نزلتُ مرّة أُخرى إلى الصالون، واتّخذت مكاني على أريكةٍ ما ألتقِط أنفاسي وأنا استجمعُ باقي الأحداث، فغدًا سيأتي المُفتّش (چورچ وينجروبر) مع قوّات الأمن لبدء سلسلةٍ من التحقيقات ستتضمَّن استجواب ما لا يقلُّ عن مائة شخص، وسيُشتَبَه في العديد منهم من جيرانٍ وأصدقاء وباعة متجوِّلين، بل سيصِل الأمر إلى الاشتباه في (كارل جابريال) زوج (فيكتوريا) الذي قيل إنّه لقِي حتفه في الحرب

العالمية، سيُقال إنّه حيٌّ يُرزَق وهرب من الحرب وعادَ لينتقِم، لماذا ...؟

لأن الكلام المُنتشِر في القرية المُجاورة يُشير إلى أنّ (چوزيف) الصغير ليس ابنه، بل هو ابن (فيكتوريا) من والِدها بعلاقة مُحرَّمة، وهذا الكلام المُفترَض أنّه مُثبت وموثّق في وثائق محفوظة في مبنى المحكمة بالبلدة، بعدَها سيدّعي نفس الجار القريب المدعو (لورنز شليتباور) أن هذا الولد هو ابنه الشرعي بل وهو مَن كان يدفع لـ (فيكتوريا) نفقة الطلاق من مالِه الخاص، ولن تستطيع التحقيقات إثبات أيٍّ من هذا ولا ربْط أيٍّ من (كارل) أو (لورنز) بالجريمة.

سيُغلق ملفُّ هذه القضية عام 1955 ولكن ستستمرُّ التحقيقات والمُقابلات الشخصية حتّى عام 1985، هل تُصدِّق ذلك ...؟

أربعة وستون عامًا من البحث والتحقيق ...!

أودُّ أن أُضيف أنّه وحتّى وقت تسجيلي لهذا الحدث لم يتم الكشف عن مُلابسات ما حدث هُنا، ولا كيف تمَّت الجريمة، ولا مَن قام بها ولا الدافع خلفها، فهل هو قتل بدافع الانتقام...؟ بالتأكيد يبدو الأمر كانتقام، ولكن مَن ...؟ وانتقام لأيّ سبب ...؟ الأُسرة بسيطة في حالِها لم تؤذِ أحدًا قط، ولا تكنُّ عداوةً مع أحد، وحتّى لو، ما هي نوعية العداوة التي تستحقُّ ردَّ فعلٍ بهذه الشناعة ...؟

وإن لم تكُن جريمة انتقام، فهل هي جريمة عشوائية ...؟ أيضًا السؤال المنطقي الوحيد الذي قد يخطر على بالي هو مَن قد يرتكب مثل هذه البشاعة في جريمةٍ عشوائية من وحي اللحظة...؟!

سرِقة ...؟ جميع مُمتلكات المنزل لم تُمَس، والأموال بالأعلى لمحتُها وأنا في طريقي لِهُنا كما سيرد في تقرير الشُّرطة ...

يتبقّى قتل شعائري ...

هذا ما مالت إليه آراء كثيرة ممَّن عرفوا بالأمر، أنَّ ما تمَّ هُنا هو تضحية من أحد المُنتمِين لإحدى الشعائر الشيطانية، والدليل على ذلك هو كميَّة الدماء المهولة في كل مكانٍ ككنايةٍ عن الأُضحيات والعُنف غير المُبرَّر لأُسرةٍ مكوَّنة من عجوزَين وأمٍّ بطفلَيها وخادمة، أي صفر مقاومة من أيٍّ منهم، فمهما كان الدافع فلكَ حُرية الخيال.

أتذكَّر الآن أنّه في العام 1999 ستصِل إلى السُّلطات رسالة من سيدة عجوز تدَّعي أن صاحب الأرض التي كانت تعيش عليها كان لدَيه معلومات عن مُرتكِب هذه الفاجعة وبالفعل أدلى بتصريحٍ مُشابهٍ بعد الجريمة بعقدٍ كامل عام 1935 ولكن لغياب الدليل الكافي عن الشخص المُتَّهم لم يتم اتّخاذ أي إجراءاتٍ ضدّه، وأيضًا لأن المُتَّهم لم يعُد على قيد الحياة عام 1999 وبالتالي لم تستفِد السُّلطات من المعلومة.

أتذكّر أيضًا في عام 2007 ادَّعى مجموعة من طلبة كلية الشُّرطة أنّهم - وبمُساعدة الوسائل الحديثة - استطاعوا حل لُغز مزرعة (هينتركايفك) والوصول إلى الجاني الحقيقي ولكن - أيضًا - لكون المُتَّهم لم يعُد على قيد الحياة فلم يَبوحوا باسمِه احترامًا لسُمعة أفراد أُسرته الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة ولم يكُن لهم أي ذنبٍ في تحمُّل العار.

ونُقطة أخيرة ...

ستُثبت التحقيقات أن الجريمة تمَّت ليلة الجُمعة 21 مارس، ولكن الغريب أنّه عند وصول رجال الشُّرطة سيجدون أن الحيوانات ليست جائعة، طعامهم وشرابهم موجود في مكانه المُخصَّص لهم أمامهم، طعام الأُسرة في المطبخ سيجدونه ناقصًا كمِّيةً قليلة تكفي شخصًا واحدًا، بل ودخان المدخنة سيظل يتصاعد في السماء لآخِر لحظة قبل دخولهم ببضع ساعاتٍ حسب شهادة الجيران وشهود العيان، وهذا ما سيُطمئنهم قليلًا وسيزرع في عقولهم فكرة أنَّ الأُسرة بخير وربّما أحد أفرادها يمُرُّ بوعكةٍ صحية أو ما شابَهَ تُبرِّر غيابهم.

وهذا يعني أنَّ من قام بهذا الفعل سيظلُّ في المكان يُطعِم الحيوانات، يتناول الطعام ويستخدِم المدفأة، ولكن ...

لحظة ...

أنا هُنا قبل ميعاد زيارة الجيران بيوم، أي أنَّ ...

هاه ...؟!

***

وفي نفس اللحظة ارتفع صوت وكأنّه نصْلٌ حادٌّ يشُقُّ الهواء مُختلطًا بصوت جلبةٍ تبعه صوت عِراك عنيف قبل أن ينقطع الصوت فجأة ويسود الصمت المكان أمام أعيُن (سامي) المفتوحتَين على آخِرهما و(يوسف) يُراقبه بابتسامةٍ جذلة وكأنّه طفل يغيظ آخَر بلعبتِه الجديدة ...

سحب اللابتوب أمامه وأخذ يعبث به بينما تعالى صوت (سامي) وهو يسأل في رهبة:

- ما هذا الذي سمعتُه بالضبط ...؟

- هذا هو نفس ردَّةِ فعلي مع أول تسجيل، فلكَ عُذرك ...

قالها (يوسف) وهو مُنهمك فيما يفعله، قبل أن يعتدل ويُدير شاشة اللابتوب أمام (سامي) ثم يقوم من مكانه ويُخرج الأسطوانة من مكانها ليُعيدها في غلافها ثُم إلى الصندوق مرّةً أُخرى مع أخواتها، في حين ألقى (سامي) بنظرِه على الشاشة ليجد قائمةً بالمراجع التي تذكُر نفس ما ذكره الرجل في تسجيله كان (يوسف) قد جمَّعها كدليلٍ على صدق الرجل ...

***

ماذا حدث في مزرعة (هينتركايفك) ...؟

https://www.ranker.com/list/hinterkaifeck-farm/cat-mcauliffe

https://forensicyard.com/cold-case-of-hinterkaifeck-murders

Footsteps in the attic - Edward Chilvers

Hinterkaifeck Farm Murders - L.J. Alexander

The Encyclopedia of Unsolved Crimes - Michael

***

رفع (سامي) عينَيه إلى (يوسف) وهو يقول:

– حسنٌ، تأكّدنا من مصداقية ما يسرده الرجل، أو على الأقل بخصوص هذه الحكاية، ولكن، كيف ...؟! ومَن هو بالضبط ...؟

هزّ (يوسف) كتفَيه أنه لا يدري وهو يُشير إلى الصندوق مرّة أُخرى بنفس الابتسامة الجذلة، فلم يستطع (سامي) أن يُقاوِم فانقضّ عليه وهو يعبث في الأسطوانات قبل أن يُخرج أسطوانة («روانوك» والمُستعمَرة المفقودة) ويرفعها أمام أعين (يوسف) الذي أخبره أنّه قد استمع إليها بالفعل، فأعادها إلى مكانها، وأخرج أسطوانة (لوط)، قبل أن يُعيدها ثانيةً إثر هزّة رأسٍ من (يوسف)، واستمر في تفقُّد الأسطوانات مرّةً أُخرى قبل أن يسحب واحدةً ثانية ويلفّها ليواجِه العنوان نظر (يوسف) الذي أخذَها منه هذه المرّة عاقدًا حاجبَيه من غرابة عنوانها قبل أن يسحبها من غلافها، ويضعها على محور الجرامافون، ثُم يسحب الملفّ المُناسِب لها من الصندوق الآخر ويُدير ذراع الجرامافون عدّة دوراتٍ سريعة ويتّخذ مكانه في الوقت الذي تعالى فيه صوت الرجل وهو يحكي ...

مشروع (إيزيس) ومقبرة الزائر
1961

لا أصدق أنِّي نسيت هذه الحكاية ...

تاهت ما بين مئات الأحداث التي قرأتها ولم أتذكَّرها إلّا عندما قرأت خبرًا مُشابهًا من فترة قريبة، وللأسف بعض التفاصيل المُهمة تُعانِدني وتتملَّص منّي فلا أستطيع تجميع القصّة كاملةً، ولكنّي سأُحاول قدْر ما أستطيع ...

الجيزة ...

أحد أيام العام 1961 أثناء حُكم (جمال عبد الناصر) ...

انتشرت الأقاويل عن عثور اثنَين من البدو على مقبرة بالقُرب من هُنا، والخبر نفسه ليس بجديد، إذا قلبتَ أي حجرٍ في (مصر) ستجِده يعود للعصر (الفولاني) أو كان مِلكًا للملك (العلّاني)، والكثير من الآثار المعروفة لنا حاليًا كان العثور عليها محض صُدفة، فلا ننسى فضل الحمير في العثور على كنوزٍ تعود لمصر القديمة، والمقصود هنا الحمير الحقيقية، الحيوانات ذات الأربع، فتجد أحدهم يخضُّ أحد الفلاحين يتعثَّر في شيءٍ ما في الحقل وعندما يهُبُّ صاحبُه لنجدته ويتفقّد ما عثَّره يجده درجةً حجرية بداية سُلَّمٍ ما يفضي إلى مقبرةٍ خيالية مليئة بالخيرات، وغيرها من القصص والحكايات التي تمتلئ بها كتب الآثار ...

ولكن هذه المقبرة بالذَّات مُختلفة، وسنعرف لِمَ ...

دعني أولًا أوضِّح الفكرة العامة لفترة الستينيات قبل تفكُّك الاتحاد السوفييتي وانهياره وحكم (ناصر) حيثُ توغَّل عُلماؤهم في كل كبيرةٍ وصغيرة، وبالطبع خبر مثل هذا لن يمُر عليهم مرَّ الكرام، فدسَّ بعضهم أنفه وتطايرت المعلومة من فمٍ لأُذنٍ لفمٍ فأُذنٍ أُخرى وهكذا حتَّى وصلت هُناك، حيثُ (بُعبُع) أوروبا في تلك الفترة ...

الكي چي بي أو المُخابرات السوفيتية ...

عقب تأسيس الجهاز في 31 مارس 1954، تمكَّن من بثٍّ الفزع في قلوب أوروبا جميعها إن لم يكن العالَم أجمع، بما كان لأفراده من دهاءٍ وأساليب ملتوية خاصةً وأن الشئون الخارجية كانت من اختصاصهم، فكانت سُمعتهم تسبقهم أمام أجهزة المخابرات الأخرى، وكان من ضمن اهتماماتهم القسم الخاص بدراسات ما وراء الطبيعة، حتى وإن أنكروا ذلك في الأوراق الرسمية، حالهم كحال ألمانيا النازية كما سأحكي في رحلتي إلى قلعةٍ ما في أوروبا، ولكن لهذا قصَّة أخرى ربما أحكيها يومًا ما ...

المهم أنه بناءً على وصول المعلومة إليهم، فقد صدَر الأمر منهم بالتدخُّل ...

وما أنا بصدد حكايته الآن وتوثيقه كاد أن يذوب في طيِّ النسيان وسط آلاف الملفات السوفيتية المخفيَّة والمنسيَّة وسط أكوام الأتربة في (الكرملين) الروسي، لولا شخصٌ واحد فقط.

ألا وهو الدكتور (فيكتور إيفانوفيتش) ...

عالِم وباحث من ضمن العلماء السوفييت الذين كان لهم الحق في

التجوُّل والاطلاع على الملفات التي تُعد سرية للغالبية العُظمى، وهُنا وقع بين يدَيه ملف هذه العملية، وليس الأمر فقط نابعًا من اكتشاف أثري قد يحوي الذهب والمجوهرات وخلافه، وليس أيضًا لكونهم لا يرغبون في أيٍّ منهما، كي لا يُساء فهمي، ولكن الأمر في هذه الحالة مُختلف؛ حيثُ ظنَّت المُخابرات السوفيتية أن هذه المرة هي فُرصة سانحة للحصول على أسرار مصرية قديمة قد تُساعدهم في تطوير التكنولوچيا الحربية لديهم، وهذا بالطبع نابع من إيمانهم بالقُوى الخفية وعالَم ما وراء الطبيعة، وبالطبع لا يصحُّ ذكر عالم ما وراء الطبيعة دون ذكر سِحر قدماء المصريين، أو على الأقل ما يُعتقد أنَّه (سحر) ...

المُهم ...

في خلال دقائق من الآن ستصِل بعثة روسية مُشاركة مع أُخرى مصرية برئاسة (سامي شرف) أحد أصدقاء (جمال عبد الناصر) وسكرتيره الشخصي للمعلومات وأحد مؤسّسي جهاز المُخابرات المصرية قبل أن ينال رُتبة وزير، وذلك طبعًا لإضفاء الصِّبغة الشرعية على وجود السوفييت وتولِّيهم إحدى مهامهم على أراضٍ مصرية ...

وأيضًا بسبب وفاة البدوِيَّين اللذَين عثرا على المقبرة بطريقةٍ غامضة وبدون تفسير، نسيتُ أن أذكُر ذلك، هل هي لعنة الفراعنة ...؟

يتوقَّف الأمر على مدى تصديق المُتلقِّي، ولا أكثر من القصص والحكايات ...

يكادُ الأمرُ يكونُ مُستحيلًا؛ تحديد الحكاية الحقيقية وسط بحرٍ

من آلاف القصص المُفبركة، ولكن ذلك لا يمنع من كَون الحقيقي منها يدعو للتأمُّل ... والتفكير ... والخوف ... والخوف هُنا بشكل رئيسي يكون ممَّا يُدْعى بـ (الرَّصَد) ...

قيل من ضمن التفسيرات العلمية لوجوده هو مدى تقدُّم عِلم قُدماء المصريين في العلوم الطبيعية، فمنها درايتُهُم الواسعة بعلوم النباتات والكيمياء، فنبغوا في اختيار الأنواع المُناسبة منهم لدفنِها في مقابرهم حتَّى تأتي اللحظة التي يقتحِمُها فيها لصٌّ ما ويندفع الأكسجين عبر الفتحة ليتفاعل مع تلك النباتات فتُنتِج غازاتٍ سامةً أو على الأقل مُضرة إن لم تقتُل المُتعدِّي فعلى الأقل تؤذيه وتُمرِضه فيما يُسمَّى بـ (الرَّصَد الكيميائي)، وذلك غير الفخاخ الحجرية والرملية من صخور تنهار على رأس المُقتحِم أو حُفَر في الأرض تخون مَن يخطو عليها فيما يُسمَّى بـ (الرَّصَد الميكانيكي) نظرًا لأن تلك الفخاخ لا تبدأ عملَها إلَّا بِناءً على تدخُّلٍ خارجي عن طريق سلسلة من ردود الأفعال لمكونات المقبرة.

وهُناك طبعًا الرَّصَد الأشهَر وهو ما لم يتم إثباته بشكلٍ علمي ألا وهو (رَصَد الجن) وتقوم فكرته على تسخير الكهنة للجنِّ في سبيل حماية المقابر من اللصوص ويتم ذلك عن طريق تغيير مكان مدخل المقبرة بطُرقٍ خارقة أو ضرب المُقتحِم وإرهابه وتخويفه من الاستمرار ولذلك يدَّعي الأفَّاقون والنصابون، ممَّن يُطلقون على أنفسهم لقب مُتخصِّصي آثار، ضرورة وجود شيخٍ مُحنك أثناء فتح المقبرة للتعامُل مع هذه الكيانات وتحييدها قبل الدخول كي لا يضلُّوا عن مكان المدخل ويقعوا في طريق أحد الفخاخ القاتلة ...

وذلك موضوع طويل ربَّما أُخصِّص له تسجيلًا كاملًا يومًا ما...

أمّا الآن فأنا أختبئ داخل المقبرة خلف نتوءٍ صخري يُخفيني عن الأعيُن لأشهدَ ما سيحدُث، وما سيحدُث الآن سيُسجَّل على شريط فيديو وثائقي ستقع نُسخةٌ منه تحت يدي بعد أكثر من أربعين عامًا من الآن وسأُشاهِدها بنفسي بالأبيض والأسود، ولن أُصدِّق ما أراه، ولذلك أنا هُنا، وللأسف لم أعُد أملك تلك النُّسخة وإلّا كُنت قد أضفتُها لصُندوق المُستندات، وإنْ كُنتُ قد استطعتُ توفير عدّة صورٍ منها ...

الآن أسمع أصواتًا مُختلطة بالخارج، يبدو أنَّهم وصلوا، جميل، في خلال دقائق سيكونون هُنا وسيجدون ما أراه هُناك الآن في الرُّكن، تابوت حجري ضخم ...





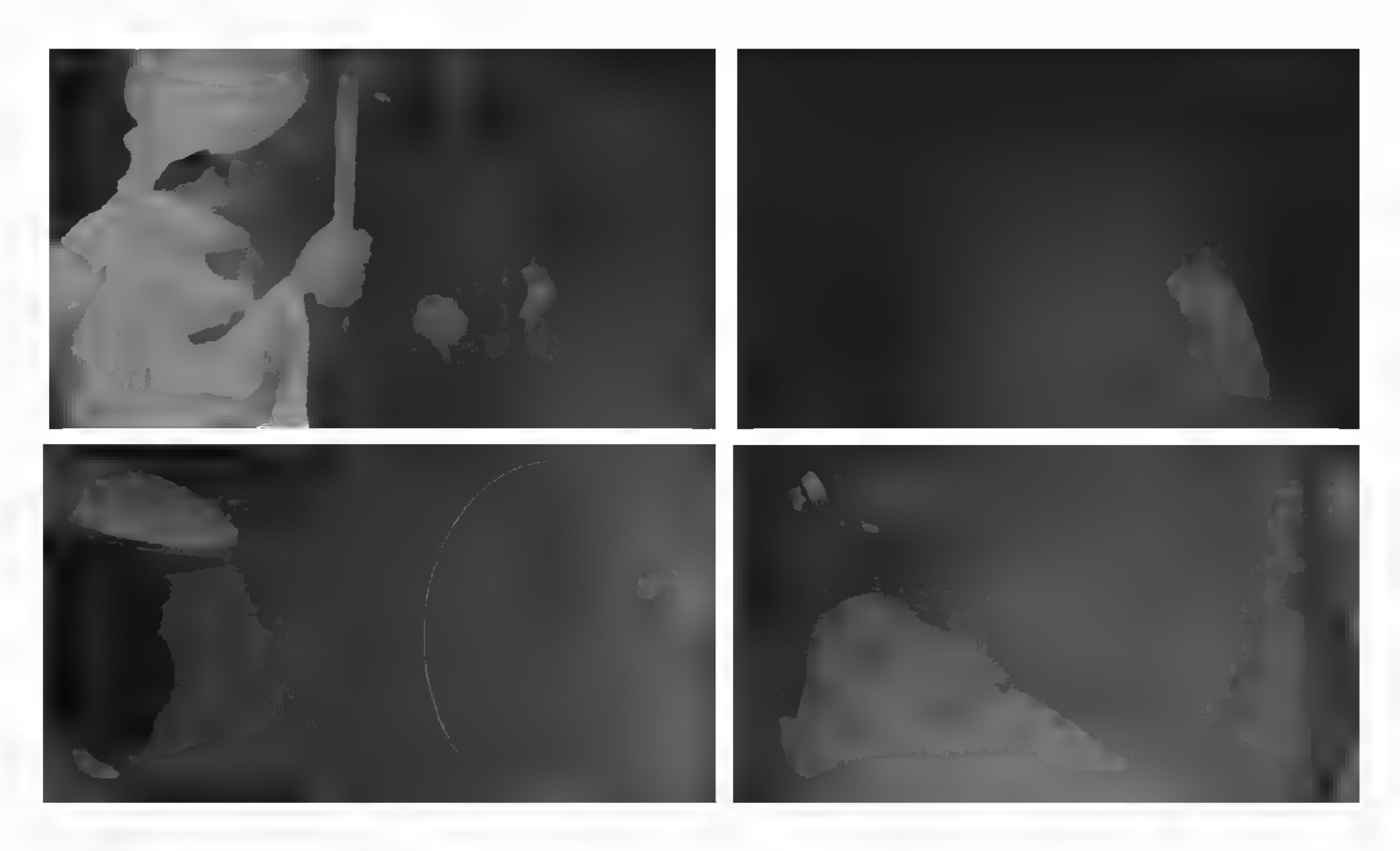
بالإضافة إلى خمسة صناديق مُغلَقة تضُمُّ بعض الآثار والمشغولات الذهبية، وثمانية صناديق أُخرى عليها نقوش بالخط الهيروغليفي، وهُنا تحضُرني روح المُعلِّم الأثيرة لأوضِّح أن الهيروغليفية ليست لُغةً كما يظُنُّ البعض، بل هي مُجرد طريقة كتابة من ضمن عدَّة طُرق كتابة للغة المصرية القديمة مثلها مثل الهيراطيقية والديموطيقية في كونها واحدةً من الأقدم على مستوى العالم القديم كلِّه وإن

استُخدِمَت في المُعاملات الرسمية على المعابد والتماثيل ...

المُهم أن هذه الكتابات عند ترجمتها ستحمِل معنىً مُثيرًا للاهتمام ...

ستحمل نبوءة ...

(سيعود ذوو الأجنحة مرّةً أُخرى) ...!



وإن كُنتَ تجد هذا مُثيرًا فانتظر حتّى تعرف أنّهم سيجدون أدواتٍ عند تحليلها سيُفاجَئون أنَّ أجزاءً منها تتكوّن من عناصر غير معروفة لنا في جدولنا الدوري ...!

عند فتحهم للمقبرة، أول ما سيُحيِّيهم هو غُبار غريب، يبدو أشبَهَ بعاصفةٍ محدودة من الأتربة الحبيسة من آلاف السنين، ستُهاجم أنوفَهم الطليقة بدون أيَّةِ أقنعة تحميها، وسيفشل أحدهم في منع

نفسه من استنشاقها ليخرَّ صريعًا من توِّهِ وسط الأعين المذعورة، قبل أن يحملوه سريعًا ويخرجوا به خارج المقبرة ليعودوا مرةً أُخرى بعد استعدادٍ كافٍ، وبالطبع أنا مُتَّخذ احتياطاتي وأرتدي قناعي من البداية كي أتجنَّب التعرُّض لهذا الغُبار القاتل.

وها قد سقطَتِ الضحية وعمَّ الارتباك وهُم يهرولون للخارج، عندما يعودون بالأقنعة سيجدون ما أراه الآن ويا إلهي! التسجيل كان حقيقيًا بالفعل، هُناك بالفعل مُومياء مُسجَّاة بداخل التابوت ... أعني أنّه من الطبيعي أن يحتوي تابوت مصري قديم على مومياء، ولكن غير الطبيعي أن تُقارب المترَين طولًا بهذا الشكل...!

هذه المومياء أطولُ من النِّسَب المُعتادة للمصريين القُدماء في ذلك الوقت، وإن كانت ملفوفة في أربطة كتَّانية على طريقة التحنيط المصرية القديمة، فسيظُنُّون أنّهم وجدوا مقبرة المعبود (أوزيريس) ...!

(أوزيريس) أو (أوزير) أو (وِسِر نِب چِت) أي (أوزير سيد الأبدية) هو معبود البعث والحساب، وهو رئيس محكمة الموتى في العالَم الغربي، عالَم الموتى، وأحد أشهر المعبودات المصرية القديمة، وهذه الفكرة مَبنيَّة على فرضية أنَّه لم يكُن شخصًا خياليًا بل كان ملكًا حقيقيًا ورُفع لمرتبة التقديس بعد وفاته ولم يصِل إلينا سوى حكايته مع أخيه (سِت) بعد تمجيدِه كمعبود، وهذا ما لن يتَّسع التسجيل لسردِه، فقط وددتُ أن أوضِّح هذه النقطة لغرَض التوثيق ...

لحظة ...

***

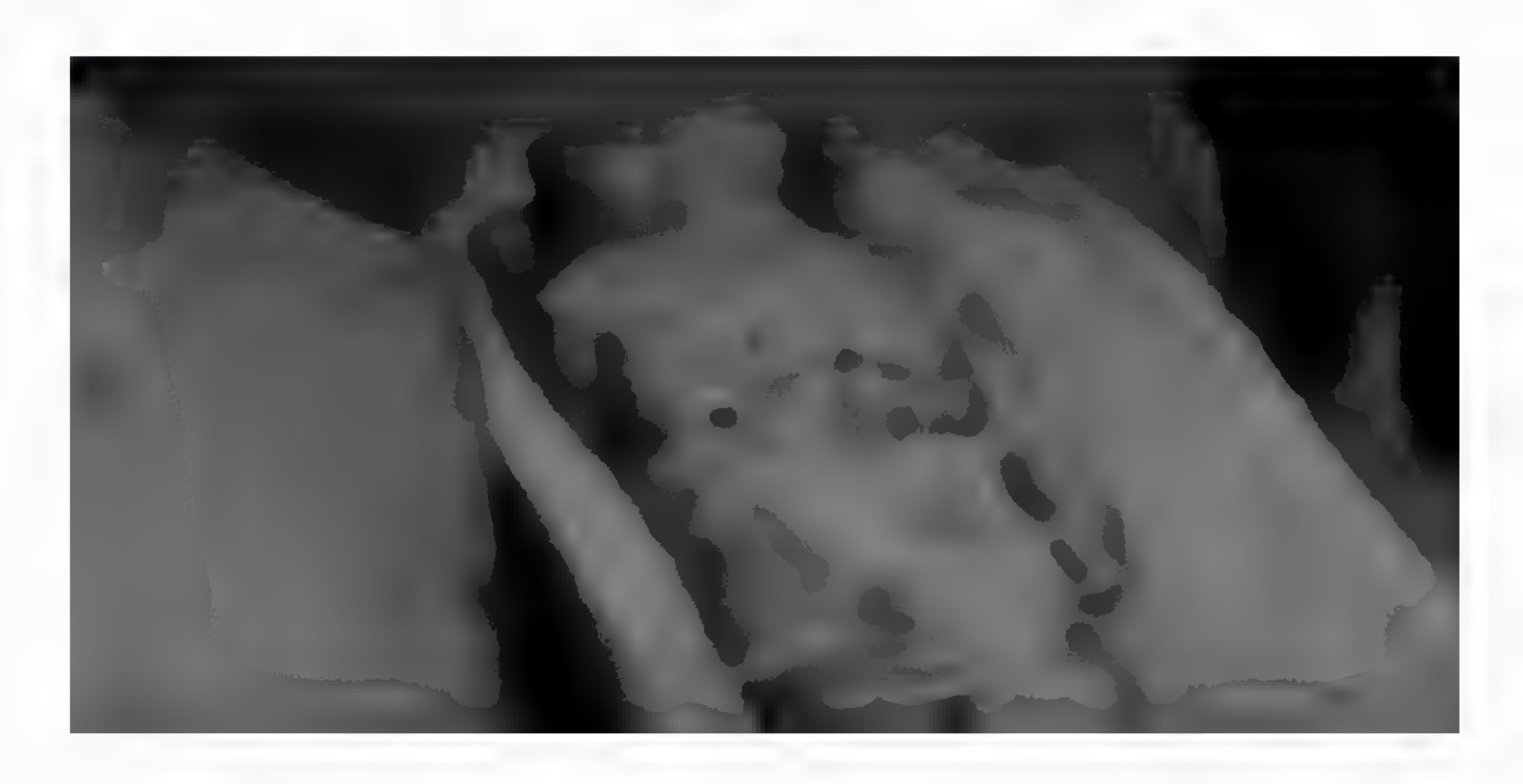
ساد الصمت إلّا من صوت خطواتٍ خافت على بُعدٍ وكأن الرجل ذهب ليتفقَّد شيئًا ما، فانتهز (يوسف) الفرصة ويفتح الملفَّ ليتفقَّد ما فيه ليجد عدَّة صور بالأبيض والأسود، واضحٌ أنّها مأخوذة من فيلمٍ تسجيلي قديم.

وبالرغم من رَداءة جودتها وألوانها الباهتة إلَّا أنّه، ببعض التركيز، وجد كلٌّ من (يوسف) و(سامي) مفاجأةً مُذهلة فيها ...

كانت الصور لما يبدو وكأنَّه جنود سوفييت يفتحون مقبرةً ما بتابوتٍ ضخم بداخلها في وجود شخصٍ ما يرتدي جلبابًا أبيض وعمامةً على رأسه كهيئة مِصريِّي منطقة الجيزة، ثم مشاهد أُخرى لِما يبدو وكأنَّهما جُندِيَّين يفتحان تابوتًا ما ثم مشاهد أُخرى لمكانٍ ما مُظلم، في الأغلب هي المقبرة من الداخل، وللأسف جميع الصور لم تكُن ذات جودةٍ كافية لرؤيةٍ واضحة ...

وكانت الصورة الأخيرة هي الأكثر إثارة، ويظهر فيها التابوت مفتوحًا وبداخله مومياء ملفوفة في شيءٍ ما غير واضح أشبَه بالكتان، ومكتوب أسفلَها كلمة واحدة فقط ...

الزائر...



انتهى (يوسف) و(سامي) من التطلُّع في الصور في الوقت المُناسِب مع صوت الرجل الذي تعالى مرَّةً أُخرى وهو يُتابع لاهثًا ...

***

كُنت أتأكد أنهم سيعودون، وها هم قادمون خلفي، وهمُّهم الآن هو أخذ عيِّناتٍ والقيام بالفحوصات اللازمة لتحديد خصائص المومياء وعُمرها، وأول ما سيُلاحظونه فيها هو رأسها، فالجمجمة لن تكون بشريةً وإنْ كانت شديدة الشبَه بجماجِمنا، بجبهةٍ أعرض وفكٍّ أصغر وعينَين أكبر بشكلٍ بيضاوي أكثر، وعندما تأتي لحظة تحديد عُمرها، ستكون الصدمة ...

فالمومياء – حسب فحوصاتهم – ترجع لأكثر من 11 ألف سنة...!

وهُنا ستأتي إلى الأذهان النظريات المطروحة والتي تمَّت مُحاربتها منذ عقودٍ والتي ترجع بعُمر الأهرامات لأكثر من 11 ألف سنة عندما تطابقت مواقع الأهرامات مع مواقع نجوم حزام (أورايون)، ومعهم

(أبو الهول) الذي يعود زمن بنائه لنفس الفترة تقريبًا، وذلك ما أشارت إليه فحوصات نِسَب تآكُل الصخور المحيطة به نتيجة لهطول أمطارٍ غزيرة لسنوات عديدة متواصلة، وهذا ما يُعد ضربًا من الخيال في منطقةٍ ذات مناخٍ قاسٍ مثل صحراء الجيزة في عصرنا الحالي، ولكن كان ذلك ممكنًا منذ 11 ألف سنة إلى 12800 سنة، ولن أستفيض في هذا الأمر فهو يحتاج إلى مُجلدات وحدَه ...

كان التوتُّر يملأ المكان، وضابطان برُتبتَين عاليتَين يتحدثان في عصبية مع الرجل ذي العمّة ويترامى إلى أُذني كلماتٌ لا أستطيع أن أكوِّن منها كلامًا مفهومًا وإن استطعتُ أن أفهم منهم كلمة واحدة فقط تتكرَّر بكثرة، (بوسيتيتل) ... (بوسيتيتل) ...

وهي كلمة باللغة الروسية وتعني (الزائر) ...

أستطيع أن أُخمِّن ما يتحدَّثون فيه الآن ...

لا بُد وأنّ الضابطَين يعتقدان أن هذه المومياء تعود لشخصٍ ما من خارج كوكب الأرض قد زار (مصر) في زمنٍ سحيق ومات هُنا ولذلك تم تحنيطه ودفنه بالطريقة المصرية القديمة تكريمًا له، ولكن، وضع تحت هذه الـ (لكن) عدّة خطوط ...

إنْ كان تحديد عُمر المومياء صحيحًا وأنّها تعود إلى 11 ألف سنة، هل هذا معناه أن الحضارة المصرية القديمة تعود لهذا العُمر ...؟! بل ولأكثرَ من هذا طالما كان التحنيط موجودًا بنفس المهارة، وهذا قد يُبرِّر استقرار صاحب المومياء هُنا، لا بُد وأنّه وجد عقلية مُتقدمة كفاية تليق بعلومِه، وأمرٌ كهذا قد يقلب موازين الأمور رأسًا على

عقِب، أليس كذلك ...؟!

وإنْ لم تكُن الحضارة المصرية القديمة قد وُجِدَت بعد، فمَن قام بتحنيطه بنفس الطريقة ...؟! هل هم أجداد أجدادِنا المصريين القُدماء ...؟!

أسئلة كثيرة جدًّا تطفو فوق رءوسهم الآن أكادُ أراها تتألَّق في ظلام الغُرفة ...

من بعد هذه النُّقطة وجميع تفاصيل ما يحدُث هُنا سيختفي، جميع السجلات ستختفي، كل الصور التي تم تصويرها والفيديوهات ستُمحى من الأذهان ولولا أنَّ الفيديو وبعض المعلومات تم تسريبها عمدًا لم نكُن لنعرف ولم أكُن لأستطيع الحصول عليها. وكعادة مثل هذه الأمور، فكل مَن يُشارك في هذه المهمة سيموت أو يختفي بعد وقتٍ بسيط من الآن، ولولا أن الدكتور (إيفانوفيتش) سيدَّعي بعدها رؤية ملفَّات هذه المهمة في أرشيف المُخابرات السوفيتية تحت اسم (مشروع إيزيس)، لظل الأمر في طيِّ النسيان ...

والآن سأرحل من هُنا، فلا شيءَ أكثر مما حكيتُ سيحدُث ولكن بقي هُناك مشهد واحد مُتبقٍّ لا بُد أن أشهده قبل أن أنتهي...

***

كان يتحدَّث والأصوات من حوله تختفي ويحلُّ محلها صوت مكتوم لتفريغ الهواء الذي صار مألوفًا الآن قبل أن تهدأ جميع الأصوات ويتبقَّى صوته وحدَه وهو يُتابع ...

***

تقريبًا نفس المكان ولكن بعد عدّة سنوات، تحديدًا الثالث والعشرون من أبريل عام 1985، حيثُ يتجمّع على بُعدٍ مجموعة من الأشخاص، اثنا عشر منهم، يبدو من ملامِحِهم أنَّهم ليسوا مصريين، وأنا أعرف أنَّهم ليسوا بمصريين، فهم روس، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي أصبحوا روسًا، بل هم بالتحديد ممّن كانوا في المخابرات السوفيتية وانشقُّوا عنها أو خرجوا من الخدمة، وهُنا هم تحت اسم جماعة دينية تُدعى (الأتباع) أو The Followers وهم مؤمنون بمصداقية ما حدث في الستينيات ويؤمنون أن ما عثر عليه السوفييت وقتَها كان حقيقيًا وأنَّ في وقتٍ ما من الماضي السحيق حضر جنس فضائي وهبط إلى كوكب الأرض والتقى بالمصريين القُدَماء الذين قدَّسوهم وعبدوهم على أنَّهم آلهة، ومُقتنعون أن هذا الجنس سوف يعود مرّةً أُخرى طبقًا للنبوءة ليستعيد حُكمه، أو على الأقل لتبادُل المنفعة بشكلٍ ما...

وهذا هو تفسير النبوءة السابقة، (سيعود ذوو الأجنحة مرَّةً أُخرى) ...

أراهم الآن يقفون على بوابة الهرم الأكبر، يحملون كاميرا صغيرة، ستُسجِّل فيديو لهم وهم يتعبَّدون ويتضرَّعون للآلهة المزعومة أن تعود، قبل أن يظهر ضوءٌ ما غريب بدون مصدرٍ واضح وستسقُط الكاميرا على إثره أرضًا ويتوقف التسجيل، وهذه الكاميرا هي كل ما ستجده قوّات الأمن بعدها وسيُسجّل اختفاء كل أفراد الجماعة بدون أثرٍ ويتحرَّر محضر باختفائهم، هذه المرة الأمر غامض للغاية

بالفعل وعليها سأختلِط بهم لأشهدَ بنفسي ما سيحدُث، لن يُلاحظني أحد في الظلام، فسأنسل الآن وسطهم وإن استطعتُ سأُسجِّل ما سأراه في تسجيلٍ مُنفصِل لاحقًا ربما أُلحِقه بهذا التسجيل إن استطعت ..

الجيزة 1985 ...

سلام مؤقَّت ...

***

قالها واختفى الصوت وتوقَّفت الأسطوانة عن الدوران، وكعادته سحب (يوسف) اللابتوب ليبدأ بحثه في حين أخذ (سامي) نَفَسًا عميقًا أطلقه برفقٍ وهو يُحاول أن يستوعِب كلَّ ما سمع قبل أن يُترجِم أفكاره إلى سؤال:

– هل المفروض أن يكون هذا أيضًا حقيقيًا ...؟ ولِمَ لم نسمع به من قبلُ ...؟ أعني مقبرة من 11 ألف سنة ومومياء فضائية، هل سيمُرُّ هذا مرَّ الكرام على الصُّحف والدوريات العلمية وخلافه ...؟

انعقد حاجِبا (يوسف) وهو يميل على شاشة اللابتوب مُجيبًا في شرود:

– لقد أجابك الرجل بالفعل يا (سامي)، لو كان هذا الأمر حقيقيًا فهذا سيقلِب الموازين رأسًا على عقب ...

وقبل أن يُناقِشه (سامي) تابع (يوسف) بنفس الشرود:

– هممم، هذا غريب، انظر ...!

ثم أدار شاشة اللابتوب نحو (سامي) الذي وجدَها مفتوحةً على يوتيوب ولكن على قناة محذوفة، حرك المؤشِر نحو الصفحات الأُخرى فوجد أغلبها كلامًا عامًّا لم يفقه منه شيئًا، فاعتدل مرةً أُخرى في مكانه وهو ينظر إلى (يوسف) مُتسائلًا:

– لم أفهم، ما هذا ...؟

– حاولت أن أبحث عن مصادر لهذه القصّة، قناة يوتيوب تحمِل نفس الاسم ولكن جميع الفيديوهات محذوفة من عليها، وباقي المصادر إمّا تُشير إلى الأمر من بعيدٍ أو تسرده على هيئة أسطورة محلية ...

– إذًا ...؟

– لا أدري، ولكن هذا يُطابق ما ذكره الرجل أن جميع السجلّات اختفت ولا يُوجَد مصادر كافية عنها وهكذا ...

هزَّ (سامي) كتفَيه وهو يتطلّع إلى ساعته التي شارفت على السادسة مساءً، فتثاءب وهو يتمطّى ثم سأل (يوسف):

– هل سنكتفي بهذا القدر ...؟

نظر (يوسف) تلقائيًّا إلى ساعتِه هو الآخر، ثم تفقَّد هاتفَه فلم يجد أي إشعاراتٍ من (إيمان)، فقال وهو يقوم من كُرسيه ليُعيد الأسطوانة مكانها في الصندوق:

– لا أدري، الأمر أصبح كالإدمان بالنسبة لي ...

فرد (سامي) قدمَيه أمامه وهو يتثاءب قائلًا بابتسامةٍ مُرهقة:

– حسنٌ إذًا، اختر لنا واحدة خفيفة ...

ابتسم (يوسف) ابتسامةً سريعة وهو يدفع الصندوق نحوَه برفق قائلًا:

– بل اختر أنت، أَرِنا ذوقَك ...

ولم يُكذِّب خبرًا (سامي) فسحب الصندوق أكثر وأخذ يعبث في الأسطوانات مُتجاهلًا ما يُخبره (يوسف) أنّه سبق واستمع إليه، حتّى وصل إلى واحدةٍ لم يستمع إليها وكان عنوانها مُبهمًا عليه تاريخان لا يُمكن أن يكونا ذَوَي صلة، فوافق عليها (يوسف) وقد خمَّن أنّها قد تكون حكايةً غريبة، فأخذ الأسطوانة منه وفضَّ غلافها ووضعها على محور الجرامافون وهو يعبث بيده الأخرى في صندوق الوثائق حتَّى وجد الملفَّ المُقابل لها فسحَبَه من بين الملفَّات وأدار ذراع الجرامافون، قبل أن يعود إلى مكانه ويبدأ الرجل في الحديث ...

انزلاق (موبرلي - چورداين)
1910-1792

الزَّمن ...

نهرٌ مُتدفِّق من الأحداث والمواقف يسير في خطٍّ واحدٍ من الماضي إلى المُستقبل مرورًا بالحاضر، أو على الأقل هذا هو التعريف العام، في حين يرى (كارلو روفيلي) عالِم الفيزياء النظرية في كتابِه (نظام الزمن) أنَّ هذا الزمن ما هو إلَّا مجرد وهم، أي أن فَهمنا وإدراكنا لمفهوم الزمن نفسِه لا يتوافق مع حقيقة ما يحدُث في الواقع ولا ما تنطبق عليه نظريات الفيزياء المُتعارَف عليها. وبدون الدخول في تفاصيل علمية مُعقَّدة فستكون رحلتي اليوم عن الزمن ...

أو، إن شئث الدقة، عن انزلاقه ...

سأشرح كلَّ شيءٍ الآن ...

مطلع القرن العشرين، تحديدًا، العاشر من أغسطس من العام 1910. مكانٌ ما في الريف الفرنسي في مُحيط قصر (فرساي) الشهير حيثُ اتَّخذتُ رُكنًا في مكانٍ ما على جانب الطريق، مُرتديًا ملابسَ تُلائم العصر لتسهيل مُهمة اختلاطي بالجموع هُنا، وأنتظر مرورهما في خلال دقائق قليلة من الآن ...

هذه هي الزيارة الأولى إلى (فرنسا) لكلٍّ من (شارلوت آن موبرلي) مُدرِّسة وأول مُديرة لكلية القدِّيس (هيو) في (أوكسفورد) و(إليانور

چوردان) صديقتها ومُساعدتها في إدارة الكلية، أي إن الاثنتَين عقليتَين علميتَين لهما ثِقلهما ومكانتهما في الأوساط الأكاديمية وليستا ذواتي عقلٍ فارغٍ، وستكون هذه المرة الأولى التي تزَيان فيها قصر (فرساي) ولن يُعجبهما كثيرًا كما ستقرِّران بعدها، ولكنَّهما لن تُكمِلا زيارتهما له وستستمرَّان في ذلك الطريق هُناك، حتَّى المكان الذي ستدور فيه أحداث اليوم والذي يُدعى قصر (تريانو) الصغير، وهذا هو المكان الذي كانت تتَّخذه الآن الملكة (ماري أنطوانيت) الشهيرة مُستقرًّا لها في الوقت الذي كان الملك (لويس الرابع عشر) قد بناه من البداية ليكون مقرًّا لعشيقتَيه مدام (بومبادور) ومدام (باري).





أراهما من على بُعدٍ تُنهِيان زيارتهما لقصر (فرساي) وتأتيان في هذا الطريق، لكونها زيارتهما الأولى كما قُلت، سيكون اعتمادهما الأوحد على دليلٍ مصوَّر صغير في يديهما تتبعان الإرشادات فيه، وستضلَّان الطريق حتَّى تقودهما أقدامُهما إلى هذا الطريق الجانبي الذي أسلُكه

الآن، حيثُ سيلفِتُ انتباههما جمال المكان بما فيه من أشجارٍ مُورقة وأزهار وأعشاب و... أين هو ...؟

أهاا، ها هو هُناك ...

كوخ أراه مُتهدِّمًا وخاليًا، فهو من بقايا الثورة الفرنسية منذ قرنٍ من الزمان، وها هما قد أتَيَتا، تقِفان في رهبةٍ تنظران حولهما، ترَيان سيدةً تقف في نافذتها تنفض ملاءةً بيضاء، وستُلاحظ (إليانور) تلك المزرعة المهجورة حيث يتحرّك أمامها محراثٌ قديم مُتهالك يسحبه حصانٌ جميل هادئ بدون أي صوت، ومن هذه النُّقطة فصاعدًا ستبدآن بالإحساس بشيءٍ ما غريب مُشترك فيما بينهما، إحساس مُفاجئ من الضِّيق وصعوبة في التنفُّس وانقباض في القلب، شعور مُقبض سيُسيطر عليهما بدون أي تفسير واضح ...



بدأتا في الحركة مرّةً أُخرى وهما تتناقشان في شعورهما، تمرّان على مجموعةٍ من الحرس عندما يرونهما تتهادَيان في طريقهما سيُشيرون إليهما كي تُكمِلا طريقَهما في هذا الاتجاه، ولكن ... هُناك شيءٌ ما مُلفِت في هذا الجمع، ربما طراز ملابسهم ...! بدا قديمًا بعض الشيء بلونِه الأخضر الأقرب للرمادي وقبّعاتهم المُثلّثة الشكل، بالإضافة إلى اللكنة التي كان وقعُها غريبًا، ربما قديمة بعض الشيء هي الأخرى بشكلٍ أو بآخَر عن الوقت الحالي، (إليانور) بالذّات لاحظت هذا، ففرنسيتها مُمتازة ...

وها هما تُكملان طريقهما وأنا على بُعدٍ أُتابع ...

ستصلان إلى كوخٍ صغير حيث سترى (إليانور) سيدةً تقف عند مدخله ومعها فتاة صغيرة، تقريبًا في عامِها الرابع عشر، وتُمسِك في يدِها إناءً ربّما يمتلئ بالماء، ستُلاحظ السيدتان أن الفستان الذي ترتديه السيدة أمُّ الفتاة غريب الشكل وقديم الطراز، طويل بشكلٍ مُبالَغ فيه ينسدِل خلفها على الأرض، وما لن تعرِفه السيدتان أن هذه السيدة هي زوجة الجنايني وابنتها (ماريون) ...

أنا أعرف هذا لأني فقط أعرف ...

ها هُما قد عبرَتا الكوخ في طريقهما لأطراف الغابة، منطقة تُدعى Temple de l'Amour أو لو ترجمناها إلى العربية ستُصبح (معبد الحُب)، وأثناء مرورهما ستعبُران بجانب ذلك الرجل، مواصفاته تُطابق ما ستسردانه لاحقًا، عجوز وكئيب، غير مُهندَم بالمرَّة، بشكلٍ مُقبض بل و(داكن) كما ستَصِفانه بالتحديد، وجه يمتلئ بالبثور والقروح كمرضى الجُدَري، ويرتدي عباءةً وقُبّعة مُثلّثة تُشبه تلك التي ارتداها الحرس منذُ دقائق، هل هي فعلًا دقائق ...؟

تعليق السيدتَين سيكون أنَّ هذا الرجل لن ينظر إليهما، بل خلالهما، وسيزيدُهما هذا الإحساس ضيقًا على ضيقِهما، لا أستطيع أن أصف شعوري أنا الآخر، عندما عرفتُ بقصّتَيهما في زمني قرأت وصفَهما لِما يحدُث ولم أستطع قطّ التخيُّل، الآن فقط أستطيع أن أفهم، سأحاول أن أنقل لك الصورة.

هو إحساسٌ غريب، كل تفصيلةٍ في المكان تبدو وكأنّها ... مرسومة ... كأنّه حُلم، عندما تحلُم فأنت لا ترى أدقَّ التفاصيل، بل الصورة

العامة فقط، لا تُوجَد أصوات، فلا أصوات أحاديث ولا حشرات ولا حتّى نسمة هواء واحدة، كل شيء يُشبِه لوحة مرسومة تتحرَّك حركاتٍ انسيابيةً وكأنها صور على صفحة ماء.

أنا الآن أسبِقهما بعدَّة خطوات، وأحسنتُ اختيار ملابسي كي تُوحي لكل مَن يراني أني أنتمي لهذا الزمن، ولهذا لا ألفِتُ الانتباه، رائع، لا أدري، هُناك شيءٌ ما ناقص.

لحظات ...

***

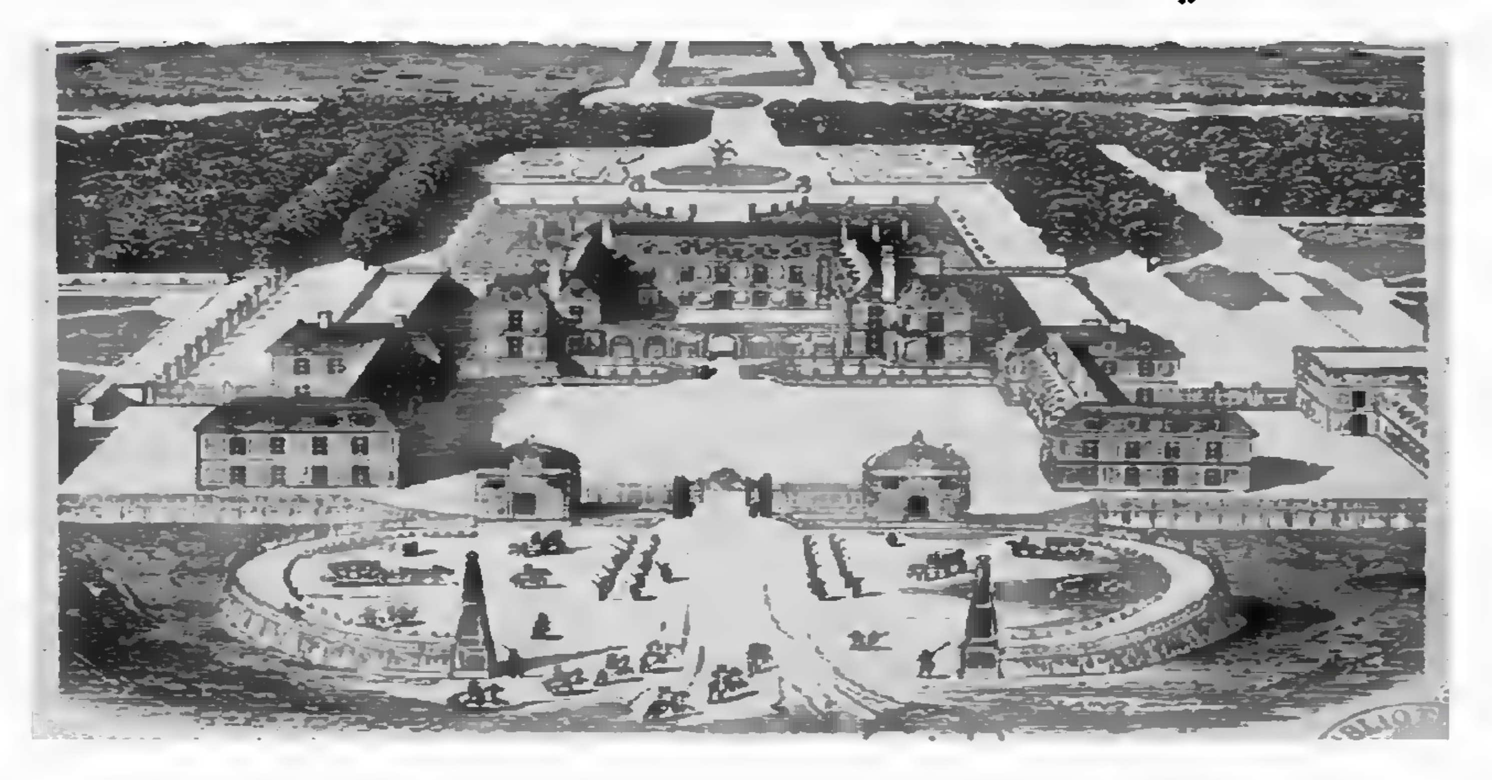
قالها وارتفع صوت خطواته وهو يبتعِد حتّى اختفى الصوت في حين استمرَّت الأسطوانة في الدوران، يبدو أنّه ذهب ليتفقّد ما لفت انتباهه ...

-أرِنا ما يحتويه هذا الملف ...

قالها (سامي) موجِّهًا كلامه إلى (يوسف) وهو يُشير إلى الملف في يده، فانتبَه (يوسف) أنّه لم يتفقّد ما فيه حتّى هذه اللحظة، ففضَّه بسُرعة ليجد عدّة صور، اثنتان منهما بالأبيض والأسود لسيدتَين من الواضح أنهما كلٌّ من (شارلوت موبرلي) و(إليانور چورداين) المعنيتَين في الأسطوانة ..

بينما صورة أُخرى ملوَّنة لسيدة تبدو من أصلٍ ملكي، بيضاء البشرة بشعرٍ مرفوع بما يُشبه التاج بريشةٍ بيضاء، وترتدي فستانًا يبدو منه صدرُها واضحًا مكتوبٌ تحتها (ماري أنطوانيت)

وآخِر صورة في الملف هي رسمٌ تخطيطي بالحجم الكبير وبالأبيض والأسود لقصرٍ منيفٍ فَهِم كلٌّ من (يوسف) و(سامي) أنه قصر (فرساي) ...



انتهَيا من تفقُّد الصور قبل أن يُعيدها (يوسف) إلى الملف ويضعه في الصُّندوق الخاص به وهو يسحب اللابتوب لينتهِز فُرصة غياب الرجل في التأكُّد من مصادر الحكاية أمام أعيُن (سامي) الذي كان يُتابع في صمتٍ حتّى انتهى في دقيقتَين من جمع بضع مصادر وأدار شاشة اللابتوب ليواجِهَ (سامي) الذي لم يهتمَّ بالولوج إلى الروابط واكتفى بتفقُّدها سريعًا فقط.

(انزلاق موبرلي- جورداين)

https://psi-encyclopedia.spr.ac.uk/articles/versailles-'time-slip'

https://www.thevintagenews.com/2017/12/08/

versailles-time-slip

https://discover.hubpages.com/religion-philosophy/A-Step-Through-Time-The-True-story-of-Anne-Moberly-and-Eleanor-Jourdain-Two-Women-who-Crossed-the-veil-of-Time

مطّ (سامي) شفتَيه قبل أن يعود ليستند بظهره مرّةً أُخرى إلى الكرسي في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت الرجل وهو يُتابع بأنفاسٍ مُتقطّعة ...

***

لم يكُن شيئًا يُذكَر ...

المُهم أن (إليانور) و(شارلوت) ستصِفان - في طريقِهما إلى هُنا - رجلًا آخرَ سيسترعِي انتباههما، ستقولان إنّه طويل القامة، أسود العينَين كبيرهما، بشَعرٍ طويل ينسدِل أسفل قُبعة الـ (سومبريرو) التي تغطّيه – والـ (سومبريرو) هي قُبعات المكسيك المُستديرة الشهيرة إن كُنتَ لا تعرف – سيأتي من خلفهما ويدلّهما على طريقٍ ما إلى اليمين من هُنا ويذهب في طريقه مرّةً أُخرى، وستُلاحظان نفس المُلاحظة في لكنتِه، غريبة بعض الشيء، ربّما أقرب إلى النمساوية منها للفرنسية الخالصة.

وعندها سيعبُران هذا الجسر الذي أعبرُه الآن، جسر يُفضي إلى حديقة أمام قصرٍ صغير نسبيًا أراه أمامي على بُعد أمتار قريبة، تجلس فيه سيدة مألوفة الملامح وإن صعُب عليهما تذكُّر أين رأتاها

من قبل، وستجِدانها ترسُم لوحةً في هدوء، ترتدي فستانًا صيفيًا خفيفًا يُظهِر تفاصيل جسمها، يبدو صدرُها مرفوعًا وواضحًا، وجزءٌ كبير منه مكشوف دليلًا على أنَّها ترتدي كورسيه، ويبدو هذا واضحًا في الوسط الرفيع المسحوب، وهذا أيضًا ليس طراز عام 1901 ...

عندما تمرَّان (شارلوت) و(إليانور) من أمام هذه السيدة ستنظُر لهما نظرةً حزينة غير مفهومة، وعندها ستشعُر السيدتان بضيقٍ غريبٍ مُفاجئ، وستنتاب (شارلوت) بالذَّات رغبة غير مُبرَّرة للسُّعال، فستُلبِّيها وترفع يدَها إلى رقبتِها وتسعل ...

وقبل رحيلهما من أمامها ستشهدان حضور شابٍّ ما يبدو مُضطربًا وخائفًا يأتي عدْوًا بدون صوتٍ ليميلَ على السيدة تحيةً لها وهو يهمِس ببِضع كلماتٍ يمتقِع لها وجه السيدة للحظاتٍ ويعتريها خَوف مُشابهٌ قبل أن تعود مرّةً أُخرى للوحَتِها في وقار...

رحلةٌ طويلة، غريبة ومليئة بلمحاتٍ غير مألوفة ستمُرُّ بها كلٌّ منهما لأول مرة في حياتها، وها هي (شارلوت) تسعل وتمرُّ مع صديقتها عبر المنطقة لتجِدا حفل زفافٍ مليءٍ بالحركة والصَّخب وعندها ستندمجان في الزحام ثم ترحلان من هُنا وتنسَيان كلَّ ما مرَّتا به لعدَّة أيام ...

والآن بعد أن انتهى الجُزء المُهم من الرحلة ...

دعني أُكمل لك ما سيحدُث وأشرح ما حدث ...

بعد عدّةِ أيامٍ من الآن، ستجمع (إليانور) و(شارلوت) جلسة صفاءٍ فتسأل (شارلوت) (إليانور) عمَّا إذا كانت قد شعرت بشيءٍ ما غريبٍ

طوال اليوم، وستُجيبها (إليانور) بالإيجاب، وهُنا ستأخذان القرار بالعودة لنفس المكان هُنا لتفقُّد السبب وراء هذا الشعور ومحاولة تفسيره، وعندها ستكون المُفاجأة، نعم ... لن يجدا أي شيءٍ مما شاهداه هُنا موجودًا ...!

بل لن تجِدا الطريق الذي سلكَتاه، لن تجدا الأكواخ ولا أيًّا من المعالِم التي وصفتُها لك منذُ قليل، كل ذلك قد اختفى منذُ أكثر من قرن، لون الحرس الأخضر بَطُل استخدامُه من أيام الثورة الفرنسية، باب الحديقة التي اتَّخذتها السيدة مرسَمًا لها مُغلقٌ منذُ 100 عام أو نيِّف، والسيدة نفسها أوصافها تُطابق أوصاف الملِكة (ماري أنطوانيت) كما ظهرت في كُتب التاريخ، أما الرجل (الداكن) كما وصفَته تُطابق أوصافه مَن يُدعى (كومتيه دي فودري) وهو عشيق (ماري أنطوانيت) كما ذكرَتْ كُتب التاريخ وأحد أهم أسباب جميع المصائب التي أصابتها ...

وعند مُراجعة الخرائط القديمة ستجدان كل تفصيلةٍ مرَّتا بها كانت بالفعل موجودة مع اختلاف التوقيت، حيث لا يُطابق الوصف الذي أدلَتا به مطلع القرن العشرين وقت زيارتهما، بل يُطابق فترة الثورة الفرنسية، أعلمُ تمام العِلم أنِّي لا أوثِّق هنا مادة علمية لمادة تاريخ المرحلة الثانوية ولكنِّي لا أستطيع مُقاومة سرد النَّذْر اليسير من خلفية هذه الفترة فقط من أجل السياق العام للرحلة ولتخيُّل الصورة العامة للفترة.

فقط سأقول إن شرارة الثورة الفرنسية قد اندلعت في 14 يونيو 1789 باقتحام حصن (الباستيل) الذي يُعَد اقتحامه النُّقطة الثالثة

والأخيرة في رحلة مَولد الثورة بعد المرحلة الأولى التي تمثَّلت في انقلاب النُّبلاء وذوي الأملاك على الملك (لويس الرابع عشر) ورفضهم مُساعدته بدفع الضرائب بعد أن أنهك الملك البلاد وأوقَعَها في أزمةٍ اقتصادية طاحنة بتدخُّله في حرب الاستقلال الأمريكية من جهة ومُعاداته لبريطانيا العُظمى من جهةٍ أُخرى، أمَّا المرحلة الثانية فهي تشكيل (الجمعية الوطنية) التي تكوَّنت من الطبقة الوسطى أو (البرجوازية الوسطى) كما يُطلَق عليها ...

أعود لحِصن (الباستيل) الذي كان حصنًا وسجنًا مَبنيًا من العصور الوسطى قبل أن يُصبح رمزًا للسُّلطة الحاكمة في قلب (باريس) ووقت الهجوم عليه من قِبل الثوّار لم يحتوِ سوى على 7 أسرى وبالتالي لم يُشكِّل عائقًا كبيرًا، إلّا أن سقوطه كان بمثابة شرارة انطلاق الثورة التي عمَّت البلاد واجتاحت أركانها.

وعندما وصلت رائحة الخطر للقصر الملكي أقنعت الملكة (ماري أنطوانيت) الملك (لويس الرابع عشر) بضرورة الفرار إذا ما أرادا الحفاظ على حياتهما وبالفعل خرجت العائلة الملكية من القصر مُتنكِّرة في عربةٍ تجرُّها الجياد سعيًا للحدود الشرقية، ليتم التعرُّف على الملك من قِبل أحد المواطنين الذي عرف شكلَه من على العُملة الرسمية للبلاد وعليها تم إيقاف المسيرة وإعادة العائلة مرّةً أُخرى إلى (باريس) تحت الحراسة بعد أن فقدا ثِقة الشعب بمحاولة فِرارهما ...

كانت (ماري أنطوانيت) في نفس الفترة تسعى للحصول على مُساعدةٍ ولِحظِّها العَسِر تزداد الحرب بين (النمسا) و(بروسيا) اشتعالًا

فيتم اتِّهام الملكة بالخيانة وبإفشاء أسرار عسكرية إلى الأعداء، أضِف على ذلك موقف محاولة فِرارها السابقة، فلم يكُن أمام الشعب سوى اتِّخاذ القرار ...

كان يوم 10 أغسطس 1792 هو اليوم الذي تمَّ فيه إيقاف الملك عن الحكم والمُطالبة بخلعِه من على عرشه ومُحاكمته ليتمَّ الحُكم عليه مع الملكة بقطع رأسيهما بدايةً به في 21 يناير 1793 وتلته هي في 16 أكتوبر من نفس العام عن عُمرٍ يُناهز الثمانية والثلاثين عامًا ...

أي قبل زيارة (إليانور) و(شارلوت) للمكان بـ 117 عامًا كاملة...!

وهذا أيضًا يعني أن كلًّا من السيدتَين عاشتا أحداثًا بجميع تفاصيلها بصورٍ حيّة من الماضي وكأنهما تُمثّلان فيلمًا تاريخيًا، بل بالتحديد عاشتا يوم 10 أغسطس دونًا عن باقي الأيام، فهذا هو القبض على الملكة من قبل قوّات الثوّار، فهذه هي اللقطة التي شهِدتاها عند حضور أحد الخدم ليُخبرها بخبر اقتحام الثوّار لأملاكها طلبًا لرأسها، بل ستصِل دقّة ما اختبرَتاه إلى أن بعض الوثائق ذكرت معلومةً قد تبدو تافهةً عن الملكة ولكنَّها كانت ذات أهميةٍ بالغةٍ لهما لم يعرفاها قبل رحلة بحثهما، ألا وهي أنَّ الملَكة كانت، إذا ما شعرت بالضيق، ترفع يدَها إلى رقبتِها وتسعل ...!

بالطبع لن تستطيع السيدتان كِتمان ما اختبرَتاه فستعمدان لنشر ما حدث معهما تحت أسماء مُستعارة للحفاظ على سُمعتَيهما في الأوساط العلمية، فستختاران اسمَي (إليزابيث موريسون)

و(فرانسيس لامونت) لتُثيرا ضجَّةً بنشرتَيهما خصوصًا وسط المُهتمِّين بالخوارق والماورائيات، وعندها سينكشِف مَن وراء الأسماء المُستعارة وسيتمُّ اتِّهامهما بالكذب وتلفيق ما حدث وسيظهر العديد من الآراء المُعارضة التي ستتبنّى فكرة أن ما حدث كان محضَ خيالٍ منهما أو على أقصى تقدير هو الْتباس بعض الحقائق عليهما من وجودهما في مكانٍ تاريخي حامل بالتفاصيل التي أكملها عقلاهُما من واقع قراءاتهما السابقة.

سيدعم أصحاب هذا الرأي كلامهم بوجود من يُدعى (روبرت دي مونتسكيو) يعيش قريبًا من هُنا وهو شخص معروف بِحُبِّه للحفلات، وكان يُقيم العديد منها على فتراتٍ زمنية مُتقاربة ومنها حفلات تنكُّريَّة فيما يُسمَّى بـ Tableaux Vivant وهي حفلات يتم فيها عمل مُحاكاة لأزمنة تاريخية سابقة، فمن الوارد جدًّا أن هذا هو ما اختبرته السيدتان ولم تُدرِكا حقيقة وجودِهما وسط حفلةٍ كبيرة مُسبقة التحضير ...

من الآراء التي يتبناها أصحاب دراسات ما وراء الطبيعة هو أنه نتيجةً لأي حدثٍ عنيف يحتفظ أي مكانٍ بالطاقة النفسية لذلك الحدث ويترك علامته على نهر الزمن فيظلُّ يُعيد نفسَه مرارًا وتكرارًا حتى يزول الأثر ويختفي وتنقطِع الأحداث عن التكرار ...

وستظهر تفسيرات كثيرة هُنا وهُناك ولكن جميعها لن تكون مُكتملة الأركان سواء الآراء التي تُدعِّم كلامهما أو تلك التي تُعارضه وستظل قصَّة (موبرلي) و(جورداين) من أكثر القصص المُمتعة والغامضة في التاريخ، حتَّى إن العظيم الراحل (أنيس منصور) سيذكر قصَّتَيهما

في واحدٍ من أشهر كتُبه التي نُشِرت في التسعينيات، كتاب (أرواح وأشباح)، ولكن، ولِيَ الفخر، أن أسرد تفاصيلَ لم يحتوِها كتابُه ...

ولن يعرف أحد الحقيقة، ولهذا بقيتُ أنا ...

رحلَتِ الفتاتان في طريقهما وأنا سأُكمِل الرحلةَ من هُنا وأرى هل سيكتمِل اليوم بهجوم الثوّار واندلاع الثورة وتُصبح حادثة (الانزلاق الزمني) أو الـ Time Slip حقيقيةً أم أنَّها مجرّد Tableaux Vivant باللُغة الدقة كما قالت الآراء المُعارضة ...؟

وربَّما أحكي ما سأجده في تسجيلٍ مُنفصل ...

فرنسا العام 1910 ...

أو 1792 ...

لا أدري بعد ...

***

قالها وران الصمت على المكان ما عدا صوت الأسطوانة وهي تدور لثوانٍ قبل أن تتوقَّف هي الأُخرى ...

كان للحكاية وقعُها على (سامي) الذي اتَّسعت عيناه في إثارةٍ وهو الذي كان يُريد الرحيل مُنذُ قليل، أمَّا (يوسف) فكان الأمرُ مُضاعفًا بالنسبة له بعد أن أصبح هُناك عِشرة بينَه وبين صوت ذلك الرجل الذي يجهل حتَّى اسمه ...

سحب نَفَسًا عميقًا قبل أن يلتقِط هاتفه من جيبه ويطلُب (إيمان)

ليطمئنَّ عليها ويُطمئِنها عليه بعد أن صارت الساعة الثامنة والربع بالفعل، فوجدَها في مشوارٍ ما مع والدتها وما زال أمامها بعض الوقت قبل أن تنتهي، فأنهى المُكالمة وهو يلتفت إلى (سامي) الذي كان يتمطّى في مكانه وقال:

– لا يزال أمامنا بعض الوقت، واحدة أُخرى ...؟

– أنت تنتهز فُرصة أنّي وحيد، أليس كذلك ...؟ ... فلا زوجة ولا أبناء ولا أُسرة سوى أمّي العجوز التي تقضي وقتَها عند أُختي ...

قالها (سامي) وهو مُقطّبُ الحاجبَين، قبل أن ينفرجا مع ابتسامتِه وهو يستطرد:

- والحقيقة أنا مُستمتِع بهذا الاستغلال ...

ضحك (يوسف) في مرَحٍ وهو يتّجه نحو الصندوق ليتفقّد الثروة ليتجمّد في مكانه وهو ينظر في الصندوق لدرجةٍ أقلقت (سامي) الذي سأله في توتُّر:

- ماذا هُناك يا (جو) ...؟

التفت إليه (يوسف) وفي يدِه أسطوانتَان قائلًا في وجوم:

- باقٍ أسطوانتان فقط ...

زفر (سامي) في قوّةٍ قبل أن يرُدّ في حنق:

- وهل هذا يستدعي ردّة فعلِك هذه ...؟

مطّ (يوسف) شفتَيه وهو يُلوّح بالأسطوانتَين قائلًا:

- يبدو أن وقتَ المرح قد شارف على الانتهاء، اختر واحدة ...

أمسك (سامي) الغلافَين في يدِه وهو يُفاضِل بينهما، أحدُهما حمل عنوان Doppelgänger والثاني كان (أين ذهب ذلك الجيش ...؟).

العنوان الثاني مُباشِر وصريح وإن لم يُشِر إلى أيَّةِ تفاصيل، ربَّما يحكي عن معركةٍ ما، وأحد الطرفَين صنع مُفاجأةً للآخَر، أو على الأقل هذا ما خمَّنه (سامي)، أمَّا العنوان الأول فلم يدرِ أيٌّ منهما ماذا يعني، فسحب (يوسف) اللابتوب وأجرى بحثًا سريعًا قبل أن يتراجَع في كرسيِّهِ وهو يقول:

- حسنٌ، كلمة Doppelgänger هي كلمة ألمانية تعني (قرين)، واضح أنَّ هذا التسجيل يحكي عن قرين شخصٍ ما، موضوع قُتِل بحثًا في آلاف المصادر ...

فكَّر (سامي) لثوانٍ قبل أن يهُزَّ الأسطوانة الثانية في يدِه ويُعيد إلى (يوسف) الأولى قائلًا:

- (القرين) يُمكن أن ينتظِر، فكلٌّ منَّا لدَيه نصيبُه من حكايات هذا القبيل، فلنرَ أين ذهب ذلك الجيش ...؟

التقط منه (يوسف) الأسطوانتَين، فوضع أسطوانة (القرين) جانبًا وسحب الأُخرى من غلافها، نفخ من عليها بعض الأتربة العالِقة فيها قبل أن يضعَها مكانها على محور الجرامافون، ثم بحث سريعًا في الصندوق الثاني حتى أخرج ملفَّ تسجيل الجيش، ويُدير الذراع سريعًا ويعود لمجلسِه في نفس الوقت الذي ارتفع فيه صوت الهديرِ، تبِعه صوت الرجل وهو يحكي...

أين ذهب ذلك الجيش ...؟
1939

اليوم العاشر من ديسمبر العام 1939 ...

فترةٌ حرجة جدًّا من تاريخ هذه المنطقة، بعد أن مرَّ عامان على بداية الحرب اليابانية الصينية إثر حادثة (جسر ماركو بولو) الشهيرة حيث تطوّر نزاع بدأ بسيطًا بين الطرفَين إلى اجتياحٍ شاملٍ من الطرفين فيما يُعتبَر أكبر حربٍ آسيوية في القرن العشرين، والطلقة الأولى في بداية الحرب العالمية الثانية في قارة آسيا.

لن أُطيل السرد في الجُزء السياسي من الحكاية، ولكن معرفة الخلفية التاريخية ضرورية في بعض الأحيان، وعليها أودُّ أن أنوِّه أنه بدايةً من هذا العام اتَّخذت الحرب منحًى مُختلفًا بعد هزيمة اليابانيين في عدَّة معارك منها معركة (شانجشا) الأولى، معركة جنوب (جانجتشي) وغيرهما، وبالطبع نتيجة لهذه الهزائم المُتتالية تشجَّعت (الصين) على بدء هجومٍ دفاعي مُعاكس بطريقة (نابليون) ضد القوّات اليابانية، وبغض النظر عن نتيجة هذه الهجمات فإن هدفنا اليوم هو حادثة مرَّت مرور الكرام في أثناء هذه المناوشات ...

حادثة كتيبة (نانكينج) ...

وأنا الآن أقبعُ خلف صخرةٍ ضخمةٍ تُخفيني تمامًا، في انتظار وصول قائدها إلى الموقع المُختار بالقُرب من تلال (نانچينج) على ضفاف نهر (اليانجتسي) في مساحة تُقدَّر بحوالي 3.2 كيلومتر مُربع وتُعَد واحدة من أكثر المناطق حيويةً في المنطقة حيث تُشرِف على

جسر يعمل عمل زمام الأمان الذي يحمي القوات المُتمركِزة خلفه.

صدر الأمر أمس إلى الكولونيل (لي فو سيان) بتمركُّز كتيبتِه المَعنيَّة والمكوَّنة من 2998 جُنديًا للدفاع عن المنطقة من أي هجومٍ مُحتمَل من اليابانيين، ولا تسألني: لِمَ لمْ يزيدوا جُندِيَّين ليُكملوا الـ 3000 جُندي؟ فهذا سؤالٌ منطقي وإن كانت إجابته غامضة بالنسبة لي.

المُهم، أنَّه تم تجهيز العُدَّة والعتاد من أسلحةٍ وذخيرة ثقيلة في استعدادهم للقتال في أي لحظة، وعليها بدأت استعدادات التَّمركُز وكل جندي بسلاحه اتّخذ موقعه وما إن استقرّت الأمور حتّى خلد الكولونيل (سيان) إلى مهجعِه ليحصل على قسطٍ من الراحة على بُعد حوالي 3 كيلومترات من الموقع، ولن يخطُر على باله ما سيأتي مع الصباح الباكر، تحديدًا بعد الفجر عندما يندفع مُساعده إلى خيمته ويُخبره أن الكتيبة لا تستجيب لأيٍ من الإشارات اللاسلكية ولا الرسائل التي يُرسلونها إليها، فجأة، وبدون أي تفسير ...

وعليها ستتشكّل قوّة استكشافية صغيرة للوقوف على سبب هذا الصمت المُريب، وهُنا ستكون المُفاجأة، عندما تصل القوّة لمكان الكتيبة لتجد حفنةً من الجنود قد تمَوضعوا قُرب الجسر، عند بدايتِه لتأمين الطريق واستكشاف الدُّخلاء قبل فوات الأوان، وبجانب ذلك ... لا شيء ... المكان كله سيكونُ خاويًا على عروشِه ... لن يجدوا أحدًا في المكان، في حين أن جميع العتاد والأسلحة في أماكنها بدايةً من المُسدّسات والبنادق الخفيفة وصولًا إلى الصواريخ والذخيرة الثقيلة، كلٌّ سيكون في مكانه بل وجاهِزين للإطلاق تحت

أي ظرفٍ كما الخُطَّة ...

وبسؤال هذه الحفنة لن يجدوا لدَيهم أيَّ إجابة، فسينفون عبور أحدٍ خلال منطقة تمركُزهم، سواء من جنودهم نحو قوات الأعداء ولا من الناحية الأُخرى كذلك، ولن يسمعوا أيَّ أصواتٍ تشي بوجود صراعٍ أو قتالٍ أثناء الليل، وسيؤيِّد ذلك حالة المكان التي كانت مُرتَّبة وكل شيءٍ في مكانه، ناهيك عن أن الحشائش حول مكان التمركُز لم تكُن بالعالية لتُخفي داخلها عددًا من الناس، كما أن أصحاب المزارع القريبة سينفون كذلك سماعَهم لأيٍّ أصوات أعيرةٍ نارية أو ضوضاء أو رؤيتهم لأي جنديٍّ يعبُر في أراضيهم، أي أنَّ قُرابة الثلاثة آلاف جُندي اختفَوا فجأة وبدون أدنى أثرٍ في خلال ساعات الليل وبدون ترْك أي جُثَّةٍ خلفهم ولا حتَّى بقايا واحدة، بالطبع كانت هُناك قائمة من التفسيرات التي حاولت الوصول إلى الحـ ...

لحظة ...

هُناك صوتٌ ما خلف تلك الأكَمة على بُعد ...

سأتفقَّد الأمر وآتي مرة أُخرى ...

***

قالها وبدا صوت خطواتِه واضحًا وهو يبتعد على الحشائش في نفس اللحظة التي نكز فيها (سامي) كتف (يوسف) قائلًا في لهفة:

- أنتظر مثل هذه اللحظة في كل تسجيلٍ بفارغ الصبر، فهي تُعطينا

الفرصة لتفقُّد الصور، فهلُمَّ بنا نرى ما يحتويه هذا الملف.

انتبه (يوسف) للفُرصة ففتح الملف من توِّه وسحب منه الصور

التي كانت كلّها بالأبيض والأسود لتحرُّكات جنود آسيويين لم يستطع أيٌّ منهما تحديد جنسيتِهم؛ ما إذا كانوا يابانِيِّين أم صينِيِّين، لا بُد أن هؤلاء هم جنود الكتيبة إيَّاها ...







لم يحتوِ الملف على أكثر من الثلاث صور والتي لم تُضِف الكثير إلى الحكاية سوى تخيُّل الجو العام للمكان وشكل الجنود، فوضعها (يوسف) مرّةً أُخرى في الملف ووضعه في الصندوق الخاص

بالمُستندات والتفتَ إلى (سامي) يسأله:

- تعتقِد ماذا حدَث لهؤلاء الجنود ...؟

- بالتأكيد هربوا في جُنح الليل، فقط أحمق مَن يُخاطر بنفسه في حربٍ خاسرة كتلك ...

قالها (سامي) بتهكُّم وقبل أن يعترض (يوسف) ارتفع صوت الخطوات تعود مرَّةً أُخرى فاكتفى بنظرة مُعاتبة فقط في الوقت الذي عاود الرجل فيه حديثَه ...

***

لا شيء، يبدو أنَّه كان حيوانًا شاردًا ...

المُهم، كُنتُ أقول إن هُناك عدَّة تفسيرات ستظهر في مُحاولةٍ لمعرفة حقيقة ما سيحدُث لتلك الكتيبة المفقودة، أو التي ستُصبح مفقودة في خلال سويعات، أولها وأشهرها هو أن الكتيبة بأكملها ستكون قد استسلمت لليابانيين خوفًا من الوقوع أسرى بين أيديهم، فالمعروف أن اليابانِيِّين يستحقرون الأسرى ويتفنَّنون في تعذيبهم ويرَون أن من الأفضل للجُندي أن يموت حاملًا سلاحه على أن يستسلِم، ولكن هذا التفسير غير منطقي وسيُفنَّد بسهولة بالِغة لأن – وبكل بساطة - المُستسلم هو أيضًا أسير حرب، فسيقَع عليه نفس ألوان التعذيب بل وأكثر، لأن المُستسلِم يخاف على حياته ولم يسعَ لينال شرف الاستشهاد في الحرب ...

هُناك أيضًا مَن يعتقِد أن الكتيبة ستعزف عن الحرب وتفقد الأمل

في الانتصار في نفس الوقت الذي كان الأمل فيه أقلَّ من أن يُوضع في الاعتبار فسيقع اختيارهم على أن يهربوا في صمتٍ وبدون لفتِ أيِّ انتباهٍ حتى يذوبوا بعدَها وسط الناس أو يهربوا خارج البلاد خصوصًا أن من بعدها سيختفي كل أثرٍ لهم حتّى من السجلّات الرسمية، والتي من ضِمنها شهادات الوفاة، وإن كان هذا هو التفسير الحقيقي فلَه دوافعه من حيثُ تحوُّل الصين إلى الشيوعية الصرفة والتي كانت عكس أيديولوچياتها قبل ذلك، وعليها فخبَر مثل هذا لن يُسمح له بالطفو على سطح الإعلام أبدًا ...

وبالطبع لا نستطيع أن ننسى التفسيرات المُعتادة في حالات الاختفاء الغامضة من أطباق طائرة وقبائل منسيَّة وشعوب (تحت أرضية) بل ووصل الأمر للعوالم الموازية وأن هذه المنطقة التي عسكرت فيها الكتيبة بها بوابة ما تُفتح على عالَم آخر، إلى آخره من التفسيرات الغريبة، وأتذكر في وقتي موقعًا ما عرض الكثير من هذه التفسيرات، إن كُنت أتذكَّره جيدًا فهو موقع يُدعى warhistoryonline.com، فقط دخلث عليه وبحثت فيه لأجد العديد من التفسيرات المُقترحة ولكن لم يمنع وجود العديد من الأسئلة مطروحة بدون إجابات شافية مثل ...

أين ذهبت الكتيبة الصينية ...؟ كيف يختفي 3 آلاف جندي فجأة بدون أثر ...؟ هل من المعقول أن يختفوا بدون إطلاق طلقةٍ واحدة ...؟ هل ماتوا ...؟ وإن ماتوا فأين جُثثهم ...؟

وأنا اليوم هُنا كي آتي بجميع هذه الإجابات، حيثُ سأنضمُّ للكتيبة في جُنح الليل وأستقر معهم طوال الليلة لأري بنفسي ما سيحدُث،

وآه ... بالمُناسبة هُناك رأي أخير نسيتُه أثناء الحديث، وهو أن الأمر برمَّته لم يحدُث، لم يكُن هُناك كتيبة بهذا الاسم قط، ولم يأتِ أي جيشٍ لهذه البُقعة وأن كلَّ ما في الأمر هو مجرد خُدعة، وهذا ما سينكشف في الدقائق القادمة، فهذا هو الوقت المعلوم، وكالعادة، إذا ما توصلتُ لشيءٍ ما مُختلف سيكون هُناك تسجيل آخر أوثِّق فيه المُستجدَّات ...

والآن سأذهب لألحق بهم ...

انتهى ...

***

قام (يوسف) ليُخرج الأسطوانة من مكانها على محورها ليُعيدَها في مكانها في الغُلاف بينما استغرق (سامي) في التفكير وهو يُداعب ذقنه الحليقَ بأطراف أصابعه، فلفت انتباه (يوسف) الذي أمسك الأسطوانة الأُخرى ليُجهِّزها وهو يسأله:

- ما يشغل تفكيرك ...؟ هل تنوي اكتشاف السِّر من هُنا ...؟

- الموضوع بالفعل غريب، لو سلَّمنا بأن الأمر حقيقي وحدث بالفعل فأين اختفى الجيش، نحن هُنا نتحدَّث عن اختفاء 3 آلاف جندي هُنا، الأمر ليس بهذه السهولة كما ترى ...

انتهى (يوسف) من وضع الأسطوانة في مكانها على المحور وأدار الذراع وهو يهُزُّ كتفَيه مُجيبًا:

- الحقيقة أنّي فقدتُ الأمل في معرفة السر وراء أيٍّ ممّا في هذه

التسجيلات ...

ثم أخذ يبحث عن الملفّ الآخر المُقابل للتسجيل في صندوق الوثائق فلم يجد أيّ ملفاتٍ بنفس الاسم، فخمَّن أن هذا التسجيل ليس له صور أو وثائق توثيقية له ...

نظر إلى (سامي) وهزَّ كتفَيه قبل أن يتّخذ مكانه على الكرسي المجاور لـ (سامي) مُتابعًا:

- أنا الآن أكتفي بأن أتعجَّب واستمتع فقط، ولا ملفَّ لهذا التسجيل...

ومع آخر حرفٍ من عبارته ارتفع صوت الرجل وهو يبدأ حكايته الأخيرة ...

***

Doppelgänger
1865

رحلة اليوم ستكون مُختلفة ...

لن أحكيها بنفسي بل سأدَع جهاز التسجيل يُوثِّق مُحادثة بيني وبين محور الحكاية ...

والآن المكان ...

أوثِّق رحلة اليوم من منطقة (وولمار) التي ستُصبح (لاتفيا) فيما بعدُ في انتظار السيدة (إيميلي ساجيي) التي ستحكي لنا قصَّتها الغريبة، وهذه المرة جئتُ مُبكّرًا قليلًا عن ميعاد التسجيل ليتسنّى لي ترتيب هذا اللقاء بدلًا من أن أحكي بالطريقة المُعتادة، وقبل أن تأتي، دعني أثرثر قليلًا في موضوع حديث اليوم.

العظيم (فيودور دوستويفسكي) له رواية صغيرة كتبَها بعد أن نالت (الفقراء) نجاحها الساحق، تُعد من أهم ما كتب وإن لم تنل نفسَ الشُّهرة كباقي أعماله للأسف، رواية تُدعى (المزدوج) نشرها في يناير 1846 وتُعتبَر حجر الأساس في كتابات (دوستويفسكي) النفسية.

هذه الرواية تحكي عن (ياكوف بتروفيتش جوليادكين) الموظف في (بيترسبرج) الذي تَفاجَأ بظهورِ شبيهٍ له يسعى لاحتلال مكانه في كل مكانٍ سواء البيت أو العمل، وجلُّ ما أثار دهشة (جوليادكين) هو ردُّ فعل الناس من أصدقائه في العمل أو خادمته (بتروشكا)،

فلم يُشاركه أحدٌ منهم في صدمته من جرّاء ظهور هذا الشبيه، بل وعندما كان يسألهم عنه وعن الشبَه بينهما كان الرد أن «هُناك فروق بالفعل بينكما ولكن عادي، ليس أمرًا جللًا، وستعتاد عليه» ...

في هذه الرواية يتناول (دوستويفسكي) الصراع الداخلي بين شخصيتَين محبوستَين في جسدٍ واحد، إحدى هاتَين الشخصيتَين قوية جدًّا بالدرجة الكافية لتُزيح الشخصية الأُخرى الأضعف، المُهم أنه في النهاية سينتهي به المآل إلى الطبيب النفسي بتُهمة الجنون، المُهم أن حكاية بطلة رحلتنا اليوم لن تكون شبيهة بحكاية (جوليادكين) ...

فما تُعاني منه لن يكون مجّرد شبيهٍ ...

بل Doppelgänger ...

وهي كلمة ألمانية تُنطَق (دوبل جانجر) أي Double Goer بالإنجليزية ويُمكن ترجمتُها بارتياح إلى (القرين) بالعربية وإن يختلِف اختلافًا كليًا عن (القرين) المُتعارَف عليه في حكايتنا الشعبية، فهذا النوع من القُرناء ليس جِنيًا ولا عفريتًا، أو على الأقل هذا هو الرأي المُتَّفق عليه، بل هو شيءٌ مُختلف تمامًا وليس له تفسيرٌ علمي حتّى لحظة سماعك هذا التسجيل، والآن ها هي قد أتت ...

السيدة (إيميلي ساجيي) ...

سأضع جهاز التسجيل جانبًا كي لا تراه، فلا تنسَ أنّنا في عصرٍ لم يعرف مثل هذه التكنولوچيا بعد وأُريدُها أن تكون على راحتها و...

- مرحبًا، مس (إيميلي)، كيف حالك ...؟

- أنا بخير، وأنت ...؟

- بخير، أتمنّى ألّا أكون قد أزعجتك، سأُحاول أن أختصر بقدْر الإمكان ...

- لا بأس، لا بُد أن أختفي في أسرع وقتٍ في جميع الأحوال ...

- جميل، لنبدأ إذًا، سبق وأرسلتُ لكِ عن طريق (بوليت) الخادمة أنّي خبير في (علم الطبيعة) وقد سمعتُ عن مُشكلتك من عدّة زُملاء ولكن لا أحدَ منهم يملِك المعلومات كاملة، فوددتُ أن أسمع منك مُباشرةً، فلرُبّما لدي الحل ...!

- لا أعتقد أن بإمكانك مُساعدتي ولكنّي لن أخسر شيئًا ...

- إحم ...

- لا عليك، دعني أبدأ البداية التقليدية ...

أنا (إيميلي ساجيي)، 32 عامًا، لا يبدو أثرُها على ملامحي، أنا – كما يقولون – جميلة، أنيقة، مُتفانية في عملي لأقصى درجة. أنا مُعلِّمة ذات تاريخ طويل في التدريس مكوّن من 18 مدرسة عملتُ بها منذُ بدأتُ مزاولة المهنة من عمر 16 عبر (فرنسا) كلها، وانتهت الرحلة في المحطة الـ 19 من مشواري في مدرسة (بينسيونات فون نيولكيه)، ولا داعي لذِكر أنَّ الأمر غريب، لو قسمت 18 مدرسة على 16 سنة سيكون الناتج سنة واحدة في كل مدرسة، بالتقريب، عام دراسي واحد، ولم أترك أيًا منها طواعيةً، وهذا ما بدأ يلفِت الانتباه

في السنوات الأخيرة ...

فكيف لفتاةٍ بمثل مقوماتي أن تُترَك لترحل ...؟ وليس من مكانٍ ولا اثنَين ولا عشرة كما ترى ...

وبات السبب واضحًا مع الوظيفة الحالية، ودعْني أسألك، هل تعرف ما هو الـ Doppelgänger يا سيدي ...؟

- نعم، عندي فكرة ...

جميل، كانت بداية انتشار الخبر هُنا، عندما بدأ التلاميذ في الفصل يتبعهم المُعلِّمون يُلاحظون شيئًا غريبًا ومُريبًا يحدُث أثناء وجودي ...

بدءوا يُلاحِظون ظهور نُسخةٍ أُخرى منّي ...

ربَّما تعرف ما هو الـ Doppelgänger ولكن المعرفة النظرية شيءٌ والرؤية والاختبار شيءٌ آخر تمامًا ..

وبالتأكيد أنت خيرُ مَن يعرف ذلك نظرًا لطبيعة عملك وهكذا، المُهم ...

بدأ ذلك القرين في التجسُّد بجانبي بينما أنا في غُرفة التدريس واقفةً لأكتُب للتلاميذ دروسهم على السَّبورة، وكان في أغلب الأوقات يقفُ ساكنًا بدون أي ردود أفعال، ولكن أحيانًا أُخرى يُقلِّد حركاتي في صمتٍ مُريب بدون أن أراه، وهذا هو أغرب ما في الموضوع، أنّي لا أراه أبدًا، على مدار السنين الماضية كلها لم أرَه ولو مرّةً واحدة، وفقط عرفت بوجوده من شهادات الشهود، ورُعبهم،

فلكَ أن تتخيَّل شعورك لو كنت تُكلِّم أحدَهم وفجأة ترى نُسخةً أُخرى منه بجانبه ...

أول مَن نشر قصَّتي كان (روبرت دايل أوين) من خمسِ سنوات في كتاب يحمل عنوانًا مُثيرًا للاهتمام هو Footfalls on the Boundary of Another World وعرف أغلب ما فيه من (چولي فون جولدنشتاب) ابنة (البارون فون جولدنشتاب) والتي كانت تذهب لنفس المدرسة سالفة الذكر التي كُنت مُدرِّسةً فيها، فبالتالي كانت شاهدة عيان على ما كان يحدُث لي ...

من ضمن ما كتبه (روبرت) كان مُلاحظة جديرة بالاهتمام ...

أن في كل مرةٍ ذلك القرين ظهر فيها كنتُ أنا في حالةٍ من السُّبات أو السكون وكأنّي تائهة داخل عقلي، حالة من الانفصال عن الواقع كمَن سحب القابس عن إدراكي، وهذا ما دعا للرأي القائل أنِّي أتحكَّم بطريقةٍ ما أو بأُخرى في هذا التجسُّد، رأيٌ مُثير للاهتمام بالفعل، وإن كُنت لا أدري مدى صحَّته، وأرى ملامح الدهشة تلتهِم وجهك، عظيم! مازال هُناك مَن يشعُر بالدهشة في هذا الزمن العجيب ...

المُهم، كُنت أقول إن ذلك القرين قد اعتاد الظهور بجانبي دومًا وخاصةً في غُرفة التدريس، ولكن ذلك لا ينفي بعض الحالات الفردية التي ظهر فيها بعيدًا عنّي، واحدة منهم حكَتْها لي إحدى التلميذات، أنه بينما كُنت أشرح لهم في فصلٍ دراسي مكوَّن من 42 بنتًا، تركتهم وخرجت للحديقة لأقطف بعض الزهور، شهد هؤلاء التلاميذ ظهور ذلك القرين في مكاني في غُرفة التدريس وعلى

الكُرسي الخاص بي، لم يأتِ بأي ردّ فعلٍ سوى الجلوس ساكنًا في مكانِه ...

في البداية كان الأمرُ طبيعيًا ولم تنتبِه البنات ظنًّا منهم أنّي أنا مَن أجلس في الكرسي، حتّى التفتت إحداهُن لتنظُر عبر النافذة وتراني ما زلت أقطف الزهور، لتكون المُفاجأة، وكالعادة لم أشعُر بشيءٍ مُختلف سوى رغبةٍ عارمة في الدخول لغُرفة التدريس والاطمئنان على البنات، وبالطبع لم أرَ ما رأينَه بطبيعة الحال.

ومن هُنا وصل الأمر إلى أولياء أمور الفتيات اللّاتي طالبنَ بطردي من المدرسة وإلا سحبنَ بناتهنّ منها، وبالطبع كان قرار طردي أسهل وها أنا هُنا أحكي لك حكايتي، وقد حان وقت رحيلي ...

فقط معلومة أخيرة لم ترِدْ في أي مصدرٍ سأُخبِرك بها قبل أن أختفي، وهي أن ذلك القرين مع الوقت بدأ يتحرَّر عن السيطرة ويصير له إرادة حُرة، وبدأ يتكلّم ويحكي ...

***

وهُنا صدر صوت يُشبِه فقاعةً من الغاز تنفجر في صوتٍ خافتٍ مصحوبًا بصوتِ شهقةٍ من الرجل تبعِتها لحظات من الصمت قبل أن يرتفع صوته وهو يقول بنبرةٍ متوجِّسة مُرتبكة ...

***

يا إلهي، يا إلهي ...!

لقد اختفت ...

السيدة (إيميلي) اختفت من أمامي فجأة وبدون أيَّة مُقدمات...!

بدأتُ أُلاحظ بعد دقائق شيئًا ما غير مُريح، ولكني عزوتُ ذلك لعدم معرفتي إيَّاها من قبل، فظننتُ أنَّها مُجرّد شخصية غريبة الأطوار ولكن ...

كُنت أشعر وكأنّي أنظر من خلالها، كانت تبدو خفيفة زيادة عن اللازم، لا أدري كيف أشرحها، والآن بعد آخِر جُملة صدرت منها ومن هذا الاختفاء المُرعب أستطيع أن أُخمِّن، أنّي كُنت أستمع طوال الوقت للقرين بنفسه ...!

ربَّما تأكّدتُ من نفس الأحداث التي قرأتُ عنها بل وشهدتُ أحدَها بنفسي ولكن، حتّى أنا لم أفهم ماهية هذا الكيان بالضبط ...!

ويبدو أن قرين السيدة (إيميلي) سيظلُّ لُغزًا لا حلَّ له مهما حدث، وإن كنتُ لن أعتبرها رحلة بلا طائل؛ فها هي خبرة أُخرى تُضاف لسجلِّ خبراتي ...

(لاتفيا) ...

1865 ...

وهذا هو أنا الحقيقي ولستُ قريني ...

انتهى ...

***

توقفت الأسطوانة الأخيرة عن الدوران وسط شعورٍ عام من

الإحباط من انتهاء التسجيلات ممزوج بالانبهار المُعتاد من مدى الغرابة التي لم تمُر على مسامِعهما من قبل، وظهر حزنٌ ليس بالقليل في صوت (يوسف) وهو يقول:

– وها قد انتهت التسجيلات، كيف سنُكمل حياتنا ...؟

نظر إليه (سامي) في دهشةٍ وهو يقوم من مكانه ليُعيد هندمة ملابسه استعدادًا للرحيل قائلًا:

– لهذه الدرجة ...؟ هذه مجرد تسجيلات للتسلية ليس أكثر...

مطَّ (يوسف) شفتَيه وهو يقوم بدوره ليُعيد ترتيب الصندوق مُتمتمًا في خفوت:

- ربّما ...

ضحك (سامي) بصوتٍ عالٍ وهو يلكِزه في كتفِه مُتابعًا:

- ما بك يا (چو) ...؟ أفِق من غيبوبتِك، لدَينا عمل نقوم به، وهذه الڤيلا بحاجة لتعديلات مهولة وبائع ليشتريها بعدَها ...

ارتسمت ضحكة خجلَى على فمِ (يوسف) وهو يقول:

- نعم، عندك حق، لقد أضعنا عدّة أيامٍ بالفعل ...

انتهى من ترتيب الصندوقَين كما كانا من قبل وأعاد لصقَهما وهو يضع اللابتوب في حقيبته ويتأكّد أنّه لم ينسَ شيئًا هنا أو هناك قبل أن يُشير إلى الباب قائلًا:

- تفضل يا فندم، لدَينا منازل تشتاق إلينا ...

ثم خرجا من الغُرفة بعد أن أغلق (يوسف) النور خلفَهما ...

وعاد الصمت يسود الغُرفة مرَّةً أُخرى ...

خاتمة لا بُدَّ منها

انتصف النهار وتمركزت الشمس فوق رءوس العمَّال وهم ينقلون مُحتويات الغُرفة إلى سيارة نقل أثاث متوقِّفة أمام باب الڤيلا تحت إشراف (سامي) الذي كان يوزع تعليماته هُنا وهُناك في نشاطٍ وحيوية قبل أن يسحب نفَسًا عميقًا ويلتقِط زجاجة مياهٍ صغيرة ويعبر الشارع للرصيف المُقابل، ويتوقف على جانبٍ يستظلُّ بشجرة وارفة في نفس الوقت الذي توقفت فيه سيارة (يوسف) وراء سيارته ونزل منها وهو يتحدَّث في هاتفه وتوقَّف بجانب (سامي) الذي تابعَه وهو يُنهي مُحادثته وقد بدا السرور على مُحيَّاه ...

- زبونٌ مُحتمَل للڤيلَّا ...

قالها (يوسف) بلهجةٍ حماسية، فارتفع حاجبا (سامي) في دهشةٍ مُتسائلًا:

- بهذه السُّرعة ...؟ نحن لم ننتهِ من إخلاء الڤيلا بعد، ناهيك عن بدء أعمال الترميم المُتراكمة.

- نعم، نعم، صديقٌ ما يعرفُ صديقًا ما أخبره أنَّ لديَّ ڤيلا للبيع وهذا الصديق نشر الخبر وها هو شخصٌ ما مُهتمٌ وسيأتي في خلال يومَين لمُعاينتها مبدئيًّا ...

- رائع، هذا معناه أنّنا يجب أن ننتهي من إخلائها على الغد إن شاء الله كي تسنح له الفـ ...

بتر عبارته على صوت أحد العمَّال وهو يصيح باسمِه على باب

الڤيلا مُلوِّحًا بيده:

- يا أستاذ (سامي)، هلا أتيت للحظة ...؟ آه، أستاذ (يوسف)، أهلًا بك، هلَّا أتيتَ أنتَ أيضًا من فضلك ...؟

عبر كلاهما الطريق وهما يُكمِلان حديثهما حتَّى وصلا لباب الغُرفة حيث سبقهما العامل فسأله (سامي) في لامُبالاة:

- ماذا هُناك يا (حسين) ...؟

أشار (حسين) إشارةً مُبهمة للأسفل وهو يُجيب:

- هُناك كومة مُغطَّاة بمفرشٍ كبير في ركن الغُرفة، ظننَّاها قطعًا من الأثاث كالمُعتاد ولكن عندما رفعنا عنها المفرش وجدناها صناديق خشبية مُتراصَّة بنظامٍ فوق بعضها ولم نشأ أن نُحرِّكها قبل أن نستشيركما.

- صناديق خشبية ...؟

ردَّد (يوسف) في شرود، قبل أن تتألَّق عيناه وهو يخبط على كتف (سامي) في لهفة قائلًا:

- هل تعتقد أنَّ ما في بالي صحيح ...؟

وقبل أن يُجيبه (سامي) كان قد أزاحه وهرول إلى الأسفل في سُرعة، فتبِعَه (سامي) على غير فهم، حتَّى وصلا إلى الرُّكن الذي أشار إليه (حسين) والذي تراصَّت فيه مجموعة من الصناديق حملت كلُّها عبارة مألوفة صارت مُحبَّبة إلى (يوسف) وما إن لمحها حتَّى صفَّق بكفَّيه كالأطفال وهو يُشير إليها موجهًا كلامه إلى (سامي):

- (سرِّي للغاية) ...! هذه كومة أخرى من التسجيلات ...!

نقل (سامي) ناظرَيه بين (يوسف) وكومة الصناديق في مُفاجأةٍ سُرعان ما انقلبت إلى ابتسامةٍ واسعة وهو يُربِّت على كتف (يوسف) قائلًا:

- عظيم! ها قد جاءتك الفُرصة لتُشبِع فضولك بما فيه الكفاية ... صناديق كاملة!

- نعم، هاهاهاها ... وجدتُ ما سأسهر عليه لفترةٍ طويلة ...

بادلَه (سامي) الضحك قبل أن يُشير إلى دائرةٍ مطبوعة على كل صندوقٍ حملت رقم 78 وحروف (آر بي إم) وهو يسأل (يوسف) في حيرة:

- ماذا تعني هذه الحروف يا (چو) ...؟

ربَّت (يوسف) على كتفه مُجيبًا:

- هذا 78rpm، أو 78 round per minute أي أن هذا يعني أن محتويات الصُّندوق هي أسطوانات حجرية تدور على محور الجرامافون بسُرعة 78 لفَّة في الدقيقة، لأن الأسطوانات الأُخرى تدور بسُرعات أقل سواء 45rpm أو 33rpm أو 16rpm وتكون مصنوعة من النايلون المُقوَّى أو كما يُطلَق عليه (البلاستيك المُقوى)، أما هذه فهي من أوائل أنواع الأسطوانات التي تم استخدامُها في التسجيل، تقريبًا من العام 1925 ...

ثم ضحك وهو يُشير إلى (حسين) مُكملًا:

- آثار، هاهاها ... يا (سحس)، أُريدك أن تنقل هذه الصناديق إلى منزلي الليلة ...

قالَها وغمز إلى (سامي) وهو يُضيف في جذل:

- هل ما زالت تسجيلات للتسلية فقط ...؟

- احم، أريدُ بعض الوقت للتأكُّد قبل أن أُعطي رأيًا نهائيًّا ...

قالها وضحِكا هما الاثنان في طريقهما إلى الأعلى، بينما شرع (حسين) في نقل الصناديق استعدادًا لتوصيلها إلى منزل (يوسف) الذي حافظت ابتسامته على اتِّساعها بغضِّ النظر عن تعب يومِه، وبدا كمَن استعاد صديقًا قديمًا كان مفقودًا.

صديق لا يعرف عنه أي شيءٍ سوى صوته فقط ...

صوت ساحر نجح في انتشال (يوسف) من صَخَب الحياة والروتين اليومي وجعله يُدمن حكاياته ورحلاته التي لم يختبِر مثلها من قبلُ في علاقة غريبة من طرف واحد ...

استسلَم لأفكاره، وهو يتَّجِه لسيارته بعد أن ودَّع فريق العمل، مُمنيًا نفسه بسهراتٍ طويلة أمام الجرامافون وتسجيلاته الغامضة بما تحتويه من غرائب وعجائب من التاريخ جميعها حقيقي بمصادره الموجودة في كل مكان ...

وأكثر ما يُثير الخيال فيها أنَّها ألغاز مفتوحة النهاية بلا حلول، مما سيترُك له المجال للتفكير وتضييع وقتِه في نشاطٍ عقلي لذيذ ...

ولكن هذا له وقتُه فيما بعد ...

وحتى ذلك الحين، سيكون لديه الوقت الكافي للتفكير في قائمةٍ من الأسئلة تبدأ بالكيفية التي تمَّت بها هذه التسجيلات، مرورًا بالوسيلة نفسها المُستخدَمة في الرحلات، وصولًا لكيفية نجاة الراوي من الموت المُحقَّق في عددٍ من التسجيلات التي سمعها ...؟ ثم ما هي نوعية التسجيلات الأخرى التي تحويها باقي الصناديق؟ هل هي من نفس عينة الأحداث المُثيرة والغريبة والمُخيفة ...؟ أم أغرب ...؟

قائمة طويلة من الأسئلة تدور في ذهنه يتوِّجها سؤال واحد فقط، في إجابته حلُّ جميع تلك الألغاز، ألا وهو ...

مَن هو صاحب الصُّندوق ...؟

وهذا هو اللغز الحقيقي ...

تمت